الفصل الثالث

فترة صراع الإمارة

١ – فى مهب الأحداث :

حكم فى هذه الفترة من تاريخ الأندلس ، أربعة من أمراء بنى أمية الأندلسيين ، عبد الرحمن الأوسط ؛ ثم ابنه محمد ، ثم حفيداه المنذر وعبد الله ابنا محمد[١]. وأهم ما تمتاز به تلك الفترة من الناحية السياسية ، هو الصراع فى سبيل المحافظة على تلك الإمارة الأموية الناشئة ، التى تعرضت لعدد من الأحداث ، يأتى بعضها من الخارج حيناً ، وينبع بعضها من الداخل حيناً آخر. ولم تؤثر تلك الأحداث على الإمارة فى سنيها الأولى ، تلك السنين التى حكم فيها عبد الرحمن الأوسط ، والتى كانت أوقات ازدهار حقيقى لحكومة قرطبة ، ولكنها أوهنت الإمارة فى سنيها الأخيرة ، وخاصة أيام آخر الأمراء عبد الله بن محمد ، حتى لقد أوشكت فى عهده على السقوط .

فقد قامت فى عهد عبد الرحمن الأوسط[٢] بعض الفتن الداخلية ، كالفتنة التى شبت من جديد بين المضرية ، واليمنية فى تدمير Tudmir ، واندلعت كذلك بعض الثورات المحلية ، كالثورة التى أشعلها المولدون فى طليطلة Toledo ، وظهرت بعض الحركات الدينية المفرقة ، مثل حركة الاستشهاد ، التى قام بها متعصبون من مسيحيي الإسبان[٣] . ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتغلب على تلك الفتن ، وأن يحد من خطر

---

(١) حكم عبد الرحمن الأوسط من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ هـ (٨٢٢ – ٨٥٢) م .
وحكم ابنه محمد من ٢٣٨ إلى ٢٧٣ هـ (٨٥٢ – ٨٨٦ م) .
وحكم المنذر من ٢٧٣ إلى ٢٧٥ هـ (٨٨٦ – ٨٨٨ م) .
وحكم عبد الله من ٢٧٥ إلى ٣٠٠ هـ (٨٨٨ – ٩١٢ م) .
فتكون هذه الفترة من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٣٠٠ هـ (٨٢٢ – ٩١٢ م) .

(٢) انظر صورة عهده فى : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ١٢١ وما بعدها ،
وانظر كذلك : Levi : Espana musulmana, pp. 129 50 ff.

(٣) راجع فى تلك الحركة : Levi : Espana musulmana, pp. 150 ff.

تلك الثورات والحركات ، بل استطاع أن يؤدب بجيوشه بعض الأقاليم المسيحية المعتدية ، وأن يحرز عليها عدداً من الانتصارات . وهكذا امتازت حكومة قرطبة فى عهده بالهيبة ، وسعدت البلاد على أيامه بالأمن ، واستطاع بتأمين الحدود وسد الثغور والحد من الفتن ، أن يقيم حكومة قوية ، لها وزراؤها وحجابها وحكامها وعمالها وقضاتها ، وغير هؤلاء ممن تقوم عليهم حكومة منظمة .

على أن عهد عبد الرحمن الأوسط ، قد شهد حدثاً خارجياً خطيراً كان من أبرز الأحداث فى تلك السنين ، وهو هجوم « النورمان » على الأندلس [١] ، ذلك الهجوم الذى أشاعوا به القلق فى كثير من المدن الأندلسية الغربية ، حيث سلبوا وقتلوا وارتكبوا كثيراً من أعمال القرصنة .

وقد أسرع عبد الرحمن الأوسط ، فأرسل جيوشه لنجدة تلك الجهات ، واستطاعت قواته أن توقف تقدم « النورمان » وتردهم على أعقابهم ، وتكبدهم كثيراً من الخسائر فى الرجال والسفن .

وفى عهد الأمير محمد[٢] ظهر بعض الخارجين على قرطبة كبنى قَسِىّ فى سَرَقُسطة ، وكابن مروان الجِلِّيقى فى ماردة . وقد سارت جيوش الأمير إلى الثائرين لإخضاعهم ، وذهبت كذلك إلى بعض المعتدين من المسيحيين المتاخمين لرد عدوانهم .

— وراجع أيضاً كتاب العرب فى إسبانيا ص ٧١ وما بعدها ، وهو ترجمة قام بها الأستاذ الجارم لكتاب المؤرخ الإنجليزى Stanley Lane-Poole.

وهذا المؤرخ من أشد الناس إنصافاً للمسلمين فى تلك الحركة، وبن أشد الناس نقداً لتصرف المسيحيين فيها.

(١) انظر فى هجوم النورمان على الأندلس : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٠ وما بعدها ، وتاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٣ وبعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ .

وانظر : Levi : Espana musulmana, pp. 144 ff.

(٢) انظر تصوير عهده فى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Levi : PP. 183 ff.

وفى عهد محمد أيضاً أغار « النورمان » على الأندلس للمرة الثانية ، وقد هجموا هذه المرة من الجنوب والشرق بالإضافة إلى هجومهم من الغرب ، ولكن الجنود الأندلسيين استطاعوا أن يردوا هؤلاء « النورمان» إلى غير رجعة .

على أن أيام هذا الأمير قد شاهدت ميلاد خطر جديد كلّف الإمارة الأندلسية كثيراً من الجهد والرجال والأموال ، وظل شوكة فى جانب الحكومة القرطبية حتى أوائل الفترة التالية . هذ الخطر الجديد ، هو عمر بن حفصون الذى اعتصم بجبل بُوبَشْتَر Bobastor[1] هو وكثير من المتمردين الإسبان الثائرين على حكومة قرطبة ، وأخذ يعتدى على بعض الأقاليم القريبة من حصنه فى الجنوب ، ويشيع كثيراً من الفزع . ثم مات الأمير محمد وخطر ابن حفصون من الأخطار التى تصارعها الإمارة ولا تكاد تنتصر عليها .

وكان المنذر[2] بن محمد من كبار قواد أبيه . فخلف أباه فى إمارة قرطبة ، ووضع نصب عينيه القضاء على ابن حفصون ، إلا أن المنية أسرعت إليه قبل أن يحقق غايته . ويقال إنه مات فى أثناء محاربته لهذا الثائر الخطر .

وخلّف المنذر أخوه عبد الله[3] . وكانت الإمارة قد أنهكها الصراع ، وتصالحت عليها كثير من الأحداث ، التى كان فى مقدمتها فى عهد الأمير عبد الله ، اتضاح حركتين مهددتين لوحدة الأندلس وللحكومة القرطبية . أما الحركة الأولى ، فهى الحركة العنصرية ، التى كان مظهرها تكتل العرب فى بعض المناطق تحت قيادة زعيم منهم للوقوف فى وجه المولدين ، الذين يتكتلون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف فى وجه العرب . وقد كانت

---

(١) من الجبال التى تتخلل السهل الجنوبى قرب غرناطة .

(٢) انظر لتصور عهده : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٨٠ وما بعدها والمصدر السابق ليڤى بروفنسال.

(٣) انظر لتصوير عهده : المقتبس لابن حيان (الجزء الخاص بالأمير عبد الله . وقد نشره القس الإسبانى ملشور أنطونيا . باريس سنة ١٩٣٧) .

وانظر كذلك : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٨٢ وما بعدها .

وانظر من المراجع الأوربية : Levi ProvenÇal, Espana musulmana, PP. 201 ff.

إشبيلية وغرناطة من مراكز هذه الحركة [١] .

أما الحركة الثانية ، فهى الحركة الانفصالية التى كان مظهرها محاولة بعض الأفراد المغامرين أو ذوى النفوذ ، الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس ، مستغلاً الضعف الذى كانت تعانيه حكومة قرطبة حينئذ . ومن أمثلة تلك الحركة ، ما قام به بنو المهاجر فى سرقسطة ، وبنو ذى النون فى « شنت ياقب » [٢] .

وهكذا خاضت الإمارة الأموية فى تلك الفترة صراعاً كثير المعارك عديد الأعداء ، وقد بدأت قوية مهيبة فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، ثم أخذت فى الضعف شيئاً فشيئاً حتى أشرفت فى أيام عبد الله على السقوط .

٢ — المجتمع يتحضر ويتحرر :

شاهدت السنوات الأولى من هذه الفترة ، حركات إصلاح وعوامل تقدم ، دفعت الأندلس أشواطاً فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى . وقد ساعد على ذلك ، هذا الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد عليه أيضاً تحمس الأمير الأموى للإصلاح ، وميله إلى النهوض بالأندلس ، حتى ينافس بها فى المغرب خلافة العباسيين فى المشرق . كما ساعد عليه كذلك ازدهار اقتصاديات البلاد فى عهده ؛ فقد زاد دخل الأندلس إلى درجة من الرخاء كانت موضع حديث المؤرخين [٣] .

وقد كان من أهم عوامل التقدم الاجتماعى فى عهد عبد الرحمن الأوسط وبعده ،

---

(١) كان إبراهيم بن حجاج متزعم عرب أشبيلية . وقد استقل بها ، كما كان متزعم عرب غرناطة سعيد بن جودى وقد استقل بها أيضاً .

(٢) انظر : المقتبس لابن حيان ص ٩ وما بعدها .

(٣) انظر فى إصلاحاته وما قام به من تعمير وماكان فى عهده من رخاء : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦ . ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٦ ، ٤٧ .

قدوم موسيقى مشرقى على الأندلس ، أحدث فى مجتمعها انقلاباً هائلاً ، بما أدخله من عادات جديدة ، وبما أشاعه من تقاليد راقية ، وبما بعثه فى المجتمع الأندلسى من روح التأنق والتجمل . كل ذلك بالإضافة إلى إشاعة الموسيقى والغناء ، وتأسيس أول مدرسة أندلسية لهذين الفنين . هذا الرجل هو :

زرياب [١] :

وقد كانت نشأته بالعراق ، كما كان فى الأصل من موالى المهدى العباسى وقد امتاز هذا الموسيقى منذ حداثته كتلميذ للموسيقى المشرقى إسحق الموصلى ، صاحب المكانة المرموقة فى بلاط بغداد . وقد ظهر نبوغ زرياب وشاع خبر مهارته حتى خشيه أستاذه الموصلى وحمله على الهجرة ، فقصد تلك الأرض النائية ، أرض المغرب . وبعد إقامة يسيرة فى بلاط أمير القيروان ، دعاه الحكم الربضى إلى الأندلس ؛ لما بلغه من مهارته الفائقة فى فنه ، ولعله أراد أن ينافس به فى الأندلس ، إسحق الموصلى فى المشرق .

وأخذ زرياب طريقه إلى الأندلس ، ونزل فى ميناء الجزيرة الخضراء ، ولكنه علم فيها بوفاة الأمير الحكم ، الذى كان قد استدعاه إلى الأندلس . وقبل أن يتسرب اليأس إلى قلبه ، جاءه رسول الأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط ، يخبره أن الأمير منفذ لوعد أبيه ، طالب قدوم الموسيقى المشرقى العظيم . فواصل زرياب رحلته إلى قرطبة ،

---

(١) اسمه على بن نافع ، وكنيته أبو الحسن ، وزرياب لقبه ، وقد أطلق عليه لسمرة بشرته ، فزرياب فى الأصل اسم لطائر أسود الريش . انظر ترجمته وما كان له من تأثير بالأندلس فى : المقرى : نفح ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن دحية : المطرب ص ١٤٧ . وابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٨ ، ٦٩ .

وانظر كذلك ما قاله ليفى بروفنسال فى محاضرته عن « الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية » ص ٢٠ — ٢٤ .

واستقبله الأمير عبد الرحمن بالترحاب والإجلال ، ومنحه إقطاعاً ذا غلة وافرة ، وقربه من نفسه وجعله من خاصته[١] .

وكان زرياب قد جاوز الثلاثين حين وصل إلى الأندلس سنة ٨٢٢ م ، وبقى فيها حتى مات سنة ٨٥٧ م . وقد فرض نفسه على المجتمع الأندلسى ، وذلك بفضل فنه وذكائه وجميل عاداته ، وتشيع الأمير ورجال الدولة له ، واستجابة أهل الأندلس لما كان يشيع فيهم من مستحدثات . فقد كان زرياب مثالا للأناقة ، فصار قدوة فى الزى . وكان مثالا فى التجديد لطرق المعيشة ، فوجدت تجديداته رواجاً بين الأندلسيين . وهو الذى علمهم كيف يفرقون شعورهم فى وسط الرأس ويعقصونها من الخلف ، حتى يظهر العنق ويبدو الجبين ، بعد أن كانوا يرسلون الشعر فوق الجبهة والأصداغ . وهو الذى استن لهم لبس الثياب البيضاء والملونة الخفيفة فى الصيف ، والفراء والأردية الثقيلة فى الشتاء . وهو الذى نقل إليهم كثيراً من طرق الطهى وتصفيف الموائد ومظاهر التحضر .

أما من ناحية الفن فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم الموسيقى والغناء ، وكان من دعائم هذه المدرسة أبناء زرياب وبناته وجواريه ، وكانوا جميعاً يحسنون الغناء ويجيدون الموسيقى . وقد خف إلى مدرسة زرياب كثير من الأندلسيين ، فكان يأخذهم بمنهج دقيق فى تعليم الموسيقى والغناء[٢] . واستطاع بسرعة أن يجعل للموسيقى الأندلسية طابعاً وشخصية وعشاقاً ، وأن يخلصها من التقاليد المدنية التى دخلت إلى الأندلس مع المدنيات ومن جاء بعدهن من فنانى المشرق[٣] قبل زرياب . ولا تزال الموسيقى تدين لزرياب ، بالعود ذى الأوتار الخمسة الذى أحله محل العود ذى الأوتار الثلاثة ، الذى كان معروفاً من قبل .

ولقد كان من نتائج وفود زرياب وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية ، أن شاع

---

(١) اقرأ قصة تدل على مبلغ إغداق هذا الأمير على زرياب ، فى : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ١١٣ .

فى المجتمع الأندلسى حب الترف والتأنق والأخـــذ بمتع الحياة ، كما شاع كذلك الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء ، والتورط أحياناً فى اللهو والمجون . وقد ساعد على ذلك تحرر بعض الأمراء ممن حكموا فى تلك الفترة ، مثل عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد كذلك تحسن الأحوال الاقتصادية فى أغلب الأحيان ، وانتشار الكروم ، والترخص فى عصر الأنبذة وشربها ، ثم كثرة القيان من مشرقيات وإسبانيات ، ووفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة .

وليس من شك فى أن المجتمع الأندلسى ، قد لاقى كثيراً من الضر فى أواخر تلك الفترة . حين تألبت كثرة من الشرور على الإمارة الأموية ، فى صراعها المرير من أجل البقاء . وليس من شك أيضاً فى أن هذا المجتمع أوذى كثيراً من تلك الأحداث الداخلية والخارجية ، التى جرت بخاصة بعد أيام عبد الرحمن الأوسط . ولكن تلك الأحداث كانت فى الوقت نفسه ، سبباً من أسباب الاحتكاك بين عناصر المجتمع ، وعاملا من عوامل صهره ؛ ذلك أن الصراع بين الإمارة وجماعة ابن حفصون ، والصراع بين العرب والمولدين ، وما كان من حركات عنصرية وانفصالية ، قد أتاح لعناصر المجتمع الأندلسى احتكاكاً أكثر واتصالا أشد .

وإذا كانت السنوات الأخيرة من تلك الفترة . قد حرمت الأندلسيين كثيراً من الأمن والاستقرار ، فإنها لم تغير من حقيقة ما وصلوا إليه فى السنوات الأولى ، من التحضر ، والشغف بالموسيقى ، والتعلق بالغناء ؛ فقد أصبح كل ذلك من عاداتهم وطرق معيشتهم ، ولم يعد من المستطاع أن تغيرهم حتى تلك الاضطرابات والقلاقل ، التى صاحبت عهد الأمير عبد الله . بل ربما كانت تلك الاضطرابات وهـــذه القلاقل ، مما يدفع بعض النفوس إلى طلب الطمأنية والبحث عن المسكن ، فى مجلس غناء أو حلقة سماع أو جماعة ندمان[1] .

---

(١) راجع المقتبس لابن حيان (الجزء الخاص بفترة الأمير عبد الله والذى نشره القس ملشور أنطونيا) فإن فيه كثيراً مما يؤيد هذا .

– وثبة الثقافة :

وثبت الثقافة الأندلسية فى تلك الفترة وثبة عظيمة ، واجتمع لها من الدوافع ما حفزها على هذه الوثبة . وقد كان من أهم تلك الدوافع ، تعلق بعض الأمراء بالمعرفة ومشاركتهم فى ميادين الثقافة ؛ فقد كان عبد الرحمن الأوسط ، محبًّا لمطالعة كتب الطب والفلسفة ، كما كان مقرباً للعلماء مؤثراً للباحثين ، باعثاً فى طلب الكتب من يجلبها له من الأمصار . وقد أرسل عباس بن ناصح إلى المشرق ليبحث له عن الكتب النافعة وينقلها إلى قرطبة[١] . كذلك كان الأمير عبد الله – برغم سوء الأحوال السياسية فى عهده – محباً للعلم مشاركاً فى الاشتغال به ، يؤثر العلماء ويقرب المثقفين . وقد قال ابن حيان عنه إنه «كان متصرفاً فى فنون ، متحققاً منها ، عالماً بلسان العرب بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب والأخبار» . وقال كذلك عن مجلسه : «وكان مجلس الأمير عبد الله ، قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس الملوك بالفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم ، فكانت كل نادرة تدور على الأفواه ، وتتناقل فى الألسنة ، لا يستقر قرارها إلا فى مجلس مذكراته ، ولا يفك عويصها إلا بين يديه»[٢] .

ولم يكن الأمراء الأمويون وحدهم الذين يشتغلون بالعلم ويقربون رجاله ، بل كان مثلهم فى ذلك ، هؤلاء الرؤساء المستقلون ، الذين ظهروا بخاصة فى عهد الأمير عبد الله ؛ مثل إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية[٣] .

وكان من دوافع الوثبة الثقافية فى تلك الفترة كذلك ، ما حمله بعض المشارقة إلى

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٦٢ . وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٨ . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ١٣٥ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٥ .

(٢) انظر : المقتبس (الجزء الذى نشره القس ملشور أنطونيا) ص ٣٤ .

(٣) انظر ما يرويه ابن حيان فى المقتبس عن المناظرة التى جرت فى مجلسه ص ١٣ ، ١٤ .

الأندلس من مؤلفات علمية وأدبية ، زيادة على ما حمله الأندلسيون أنفسهم . ومن أشهر نقلة المؤلفات المشرقية إلى الأندلس فى تلك الفترة ، إبراهيم بن أحمد الشيبانى ، المعروف بأبى اليسر الرياضى وهو من أهل بغداد ، وكان قد لقى الجاحظ والمبرد وثعلباً وابن قتيبة من الأدباء ، وأبا تمام والبحترى ودعبلا وابن الجهم من الشعراء ، وسعيد ابن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن طاهر من الكتاب ؛ ولقى غير هؤلاء وأولئك من أهل العلم والأدب ، ثم رحل إلى المغرب وسكن القيروان ، وكتب للأمير إبراهيم ابن الأغلب ، ثم لابنه عبد الله . ووفد أيضاً على الأندلس فى عهد الأمير محمد[١] .

كذلك كان من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه فى تلك الفترة ، محمد بن عبد السلام بن ثعلبة . وكان قد دخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستانى والعباسى والرياشى وأبا إسحق الزيادى ، فأخذ عنهم رواية الأصمعى وغيره ، ودخل كذلك بغداد وأخذ عن علمائها ، ثم انقلب إلى قرطبة . وعن طريق هذا العالم دخل الأندلس كثير من كتب اللغة ودواوين الجاهليين[٢] .

وكان من نتائج هذه الوثبة الثقافية ظهور كثير من علماء الأندلس فى شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية ، وظهور طلائع العلماء الأندلسيين فى العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية . فقد ظهر بالإضافة إلى الكثير من علماء الدين واللغة ، أول فيلسوف أندلسى ، وهو محمد بن مسرة[٣] وكان أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة على صديق لأبيه . ونشأ محبا للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً . ومن العجيب أنه كان

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ — ٥٩ .

(٣) انظر بعض ترجماته فى : جذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ٢١ ، ٤٢ . وانظر البحث القيم الذى كتبه عنه الأستاذ أسين بلاثيوس بعنوان : Ibn Masarra y su escuela

فى كتابه Opras escogidas, vol.I. .

فى هذه السن المبكرة أستاذاً له تلاميذ يعلمهم ويعيش معهم فى منزل يملكه فى جبل قرطبة ، وكان يلقن تلاميذه نوعاً من الفلسفة ، يستره بأستار من الزهد . وقد أشاع الناس عنه أنه يشيع تعاليم إلحادية تتنافى مع تعاليم الإسلام . وكان ذلك فى عهد الأمير عبد الله ، حيث الظروف القاسية ، والسنوات المليئة بالقلاقل ، فخاف ابن مسرة على نفسه ، ورحل إلى المشرق ، وبعد فترة عاد إلى معتزله بقرطبة، يواصل تعليم تلاميذه فلسفته فى جو أكثر هدوءاً . وألف ابن مسرة كتباً ضاع معظمها ، وقد وصلنا اسمان لكتابين له ، هما : التبصرة والحروف. وقد استطاع المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوس Asin Palacios أن يجمع بعض أطراف مذهب ابن مسرة مما نقل من كتبه فى طيات كتب الأندلسيين . وبين العالم الإسبانى أن مذهب ابن مسرة كان يقوم على أفكار فيلون الإسكندرى وأفلوطين وغيرهما ، كما أنه كان يعتمد على إبراز نظرية تقول بوجود مادة روحانية . تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . ويبدو أن ابن مسرة كان يروج لمذهبه تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية .

وقد ظهر كذلك فى تلك الفترة ، أول مؤرخ أندلسى ، وهو عبد الملك بن حبيب[1] وكان قد درس أول الأمر فى إلبيرة وقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق ، وتردد على حلقات الدرس فى مدنه ، وخاصة المدينة المنورة . وعاد بعد ذلك إلى بلاده ، فأدرك شهرة عظيمة ، حتى لقب بعالم الأندلس . وقد قيل فى سعة علمه وتعدد معارفه : إنه كان يقسم طلبته فى مسجد قرطبة إلى مجموعات ، يدرس لكل مجموعة علماً ، ولا يسمعهم به فى ذلك إلا كتبه وموطأ مالك . ومع ذلك لم يبق من كتبه الكثيرة إلا كتابه المسمى : التاريخ ، وهو لا يزال مخطوطاً فى مكتبة أكسفورد . ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى الكتاب بعض الزيادات ، لأن الرجل قد مات قبل إمارة عبد الله ، ومع ذلك يصل ما كتب

---

(١) انظر فى ترجمته : جذوة المقتبس للحميدى ص ٢٦٣ — ٢٦٥ . وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ٣١٢ — ٣١٥ .

فى الكتاب إلى عهد هذا الأمير الأموى . ويشتمل كتاب عبد الملك ، على بعض الأساطير ، التى نسجت حول فتح المسلمين للأندلس . ويذهب المؤرخ الهولندى دوزى Dozy إلى أن ابن حبيب قد أخذ هذه الأساطير عن أساتذته المصريين[١] .

كذلك كان من مظاهر وثبة الأندلس الثقافية فى تلك الفترة ، ظهور أوائل أطباء الأندلس ، مثل أحمد بن إياس ، وحمدين بن أبان[٢] ، وكانا أيام الأمير محمد . ثم ظهور أوائل الفلكيين والرياضيين ، مثل أبى عبيدة مسلم بن أحمد البلنسى ، وكان يعنى بعلم الحساب والنجوم[٣] .

وليس من شك فى أن ظهور رجل كعباس بن فرناس ، مما يعد من مظاهر الوثبة الثقافية فى تلك الفترة ؛ فقد كان هذا الرجل من مفاخر الأندلس ، وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا : إنه كان من مفاخر الفكر الإنسانى عامة ، فهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة بالأندلس ، وهو أول مخترع للآلة المعروفة بالمثقال لمعرفة الأوقات ، وهو من أوائل من حاولوا الطيران فى التاريخ ، حيث صنع جناحين وركبهما على جانبيه ثم طار بهما حيناً ، لكنه وقع . وكان ابن فرناس إلى ذلك أديباً شاعراً[٤] .

٤ — وثبة الأدب :

وقد وثب الأدب الأندلسى فى تلك الفترة وثبة واضحة ، قربته كثيراً من نهضة شاملة سيحظى بها فى الفترة التالية . وقد ساعدت على تلك الوثبة أمور ، أكثرها يرجع إلى التقدم

---

(١) انظر : Angel Gonzalez Palencia . Historta de la Literatura Arabigo-esbanola. ,pp. 141 ff.
وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة المصدر السابق ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٧٨ . وانظر : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٤ ؛ ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) انظر بعض أخباره فى : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٨ .

الثقافى والاجتماعى الذى حظيت به الأندلس . حينذاك ، وأقلها يرجع إلى الوضع السياسى الذى كانت عليه البلاد فى تلك الفترة ، ذلك الوضع الذى كان من مظاهره الحركة العنصرية ، والحركة الانفصالية ، والاحتكاك الشديد بين عناصر الأندلس ، من عرب ومولدين ومستعربين . وفيما يلى تفصيل القول فى جنسى الأدب :

أولا : الشعر :

أول ما يلاحظ على الشعر الأندلسى فى تلك الفترة ، أنه لم يعد مقصوراً على ذلك الاتجاه المحافظ الذى عرفه من قبل ، وإنما قد اتسع لبعض الاتجاهات الجديدة ، التى وفد بعضها من المشرق وانبثق بعضها الآخر من الأندلس . كذلك يلاحظ أن الاتجاه المحافظ المعروف من قبل قد اتسعت ميادينه ، فعالج بعض ما قد جدّ فى حياة الأندلسيين تبعاً لظروفهم السياسية والاجتماعية التى أحاطت بهم فى تلك الفترة . وقد كانت نتيجة ذلك كله نموًّا للشعر وازدهاراً له . وهذا بيان ذلك .

(أ) معرفة الاتجاه المحدث :

ونعنى به هذا الاتجاه الذى سار فيه بالمشرق أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وأمثالهم من المجددين ، والذى تزعمه أبو نواس ، حين ثار على الاتجاه التقليدى وندد بطريقته ، وراح يطرق أغراضاً جديدة ، بمنهج جديد وأسلوب محدث .

وكانت هذه الحركة التى تزعمها أبو نواس معاصرة لتلك الفترة التى نسوق عنها الحديث. ولما كانت الأندلس دائمة الصلة بالمشرق ، دائمة الأخذ عنه ؛ قد أخذت هذا الاتجاه الجديد فى الشعر ، حيث نُقل إليها فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وما لبث أن شاع بين أدباء الأندلس .

وكان ناقل هذا الاتجاه الشعرى ، عباس بن ناصح[١] ، الشاعر الذى عرف فى أيام الحكم الربضى ، والذى امتد به الأجل إلى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان قد سافر إلى المشرق فالتقى فى العراق بأبى نواس وسمع شعره ، وعاد إلى الأندلس فأشاعه بين الأندلسيين . وما لبث بعض هؤلاء أن تمثلوه ، وأنتجوا ما يشبهه بل ما يفوقه فى بعض الأحايين . وبهذا ظهرت تلك الأشعار المحدثة Moderna التى أخذت اتجاهاً جديداً بجانب الاتجاه القديم .

ويتمثل هذا الاتجاه المحدث فى الاهتمام بأغراض شعرية لم تكن شائعة من قبل ؛ ثم فى الأسلوب الذى تعالج به هذه الأغراض وغيرها مما يتناوله الشعراء .

فمن حيث الأغراض . ظهرت الخمريات . كقول يحيى الغزال :

ولما رأيتُ الشَّرب أكْدَتْ[٢] سماؤهم ... تأبطتُ زِقى[٣] واحتسبت عنائى
فلمـــا أتيت الحان ناديت ربه ... فهب خفيف الروح نحو ندائى
قليلَ هجوع العـــين إلا تعلة ... على وجل منى ومـــن نظرائى
فقلت أفِقنيهـــا فلمـــا أذاقنى ... طرحت إليه رَيطتى[٤] وردائى
وقلت أعـــرنى بِذلة[٥] أستتر بها ... بذلت لـــه فيهـــا طلاق نسائى
فوالله ما برّت يمينى ولا وفت ... له غير أنى ضـــامن بوفائى
وأبتُ إلى صحبى ولم أك آيبا ... فكلٌّ يفـــدّينى وحَقَّ فدائى[٦]

---

(١) راجع ما كتبناه عنه فى ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) أكدت : توقفت عن المطر .

(٣) الزق : وعاء الخمر .

(٤) الريطة : كل ثوب رقيق .

(٥) البذلة : ما لا يصان من الثياب .

(٦) وردت هذه الأبيات فى : المطرب لابن دحية ص ١٤٨ .

وظهر كذلك الغزل الشاذ ، وهو الغزل بالمذكر . ومنه قول شاعر اسمه مؤمن . يخاطب مغنياً اسمه منصور . ويتغزل فى فتى يلقب بابن القط :

قُولا لمنصور : أبا نصرٍ بحرمة المضراب والنقر
ألا حكمتَ اليوم لابن الذى لُقب بالقط على البدر
لا والذى طافت قريش له بالبيت فى أيامه العشر
كأنما هاروت فى طرفه إذا رنا ينفث بالسحر[١]

وظهرت كذلك المجونيات ، كقول المطرّف بن عبد الرحمن الأوسط :

أفنيتُ عمرىَ فى الشر ب والوجوه الملاحِ
ولم أضيع أصيلا ولا اطّلاع صباح
أحيى الليالى سهداً فى نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح[٢]

وظهرت كذلك بواكير الطبيعيات ، كقول عبد الرحمن الأوسط ، وقد كتب به إلى صديقه الشاعر عبد الله بن الشَّمر :

ما تراه فى اصطباحٍ وعقود القطر تنثرْ
ونسيم الروض يختا ل على مسك وعنبر
كلما حاول سبقا فهو فى الريحان يعثر
لا تكن مهمالة واسـ بق فما فى البطء تعذر[٣]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٣٨ (الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا).
(٢) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٩ .
(٣) وردت هذه الأبيات فى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

وظهرت كذلك الزهديات كقول الأمير عبد الله :

يا مـــن يراوغـــه الأجـــلْ حتَّـــامَ يلهيـــك الأمـــل
حتـــام لا تخشى الـــردى وكأنه بك قـــد نـــزل
أغفلتَ عن طلب النجـــا ة ولا نجـــاة لمن غفـــل
هيهـــات تشغلك المُنَى ولَمَـــا يدوم لك الشَّغَل
فكأن يومـــك لم يكن وكأن نعيـــك لم يزل[1]

هذا ما يتعلق بالاتجاه المحدث من حيث الأغراض الجديدة التى بدأت تجذب الشعر الأندلسى ؛ أما من حيث الأسلوب الجديد ، الذى بدأ يتضح فى الشعر السائر فى هذا الاتجاه ؛ فيلاحظ – كما تؤكد النماذج السابقة – أنه أسلوب يميل إلى شىء من التفصيل ويتجه أحياناً إلى القص ، وتشيع فيه روح الدعابة والسخرية والتحرر إذا كان الموضوع لاهياً ، كما تشيع فيه روح المرارة والكآبة والتزمت إذا كان الموضوع جاداً . ثم هو غالباً أسلوب ترسم صوره من عناصر حضرية ، وتحلق أخيلته فى آفاق غير آفاق البادية ، وتؤلف لغته من ألفاظ بسيطة واضحة حسنة الإيقاع ، وتميل موسيقاه إلى البحور القصيرة والقوافى الرقيقة .

دواعى التجديد :

وكما كان للاتجاه المحافظ ما يبرر الأخذ به فى الأندلس خلال الفترة السابقة ، كان لهذا الاتجاه المحدث ما يشجع على السير فيه خلال تلك الفترة التى نسوق عنها الحديث . فمعروف أن هذا الاتجاه فى أصل نشأته بالمشرق ، أثر من آثار تلك الحياة الجديدة التى عاشها الناس خلال النصف الأول من العصر العباسى الأول ، أى فى تلك

(١) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص٢٣٢ ، وفى : أخبار مجموعة ص ١٥٣ .

السنوات التى أخذ الناس فيها يفتحون عيونهم فى دهشة على مستحدثات الحضارة ، وراحوا يعبون فى نهم من طيبات الحياة ، ثم انطلقوا فى كثير من التحرر وراء المتع المختلفة : من شراب وغناء وموسيقى ، وما يتبع ذلك من مجالس لهو ومغامرات مجون . وقد ارتاع بعضهم من هذا التحرر المورّط فى كثير من الآثام ، وكان من هؤلاء المرتاعين بعض المتورطين من قبل ؛ فأخذوا أنفسهم بالزهد ، وراحوا يبغضون فى الدنيا ، وينفرون من المتع ، ويدعون إلى التزود للآخرة ، ويشيعون احتقار الحياة وتذكر الموت .

وهكذا كانت كل الموضوعات الشعرية المفضلة لدى الاتجاه المحدث ، تمثل الحياة الجديدة للمجتمع الجديد ، وتصور هذا المجتمع فى نزقه حينا ، وفى رشده حيناً آخر .

وكان المجون والزهد — برغم تناقضهما الظاهرى — يرجعان إلى مصدر واحد هو تلك الحياة المتحررة اللاهية الصاخبة الجديدة ، التى عرفها المجتمع الإسلامى فى النصف الأول من العصر العباسى الأول .

كذلك كان الأسلوب الشعرى الجديد الذى آثره شعراء هذا الاتجاه المحدث ، أثراً من آثار تلك الحياة الجديدة ، التى كانت بمثابة رد الفعل للحياة البدوية القديمة .

هذا ما حدث فى المشرق حيث نشأ هذا الاتجاه المحدث . أما فى الأندلس ، فقد كانت الحياة فى فترة صراع الإمارة تقارب تلك الحياة فى العراق أيام نشأة هذا الاتجاه . فقد كان الأندلسيون فى تلك السنوات ، يفتحون عيونهم على حياة جديدة مترفة ، كما كانوا ينعمون بكثير من التحرر فى ظلال بعض الأمراء المتحررين مثل عبد الرحمن الأوسط . وبدأت تكثر بينهم مجالس الموسيقى والغناء بفضل ما جاء به زرياب من ألحان وآلات وقيان ، وما لقيه من تشجيع وما بذله من جهود . كما بدأت تكثر فيهم مجالس الشراب بسبب ما أتيح لهم من إنتاج الكروم وعصر الأنبذة وترخص فى شربها . كذلك بدأت تعرف بينهم علاقات الحب الشاذ ، بسبب ما كثر بينهم من

غلمان صقالبة وغير صقالبة ، ثم لما أحاط بالعلاقات والتقاليد من كثير من التحرر وعدم التزمت .

وربما ساعد على هذا النحو من السلوك ما عانت حياة الأندلس فى تلك الفترة من صراع زلزل القيم ودفع الناس إلى التعلق بمتع الحياة ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض ألوان هذا الصراع الذى خاضته الأندلس فى تلك السنين .

وكما أحدث هذا الاندفاع والتحرر رد فعل عند بعض المشارقة ؛ أحدث الشىء نفسه عند بعض الأندلسيين ، فأنكر بعضهم ذلك الإقبال على الدنيا ، وندد بالتعلق بمتعها ، وراح يذكر بالموت ويدعو إلى التزود للدار الآخرة . وقد كان من هؤلاء من بدأ حياته فى التحرر واللهو والتعلق بمتع الحياة . مثل يحيى الغزال الذى سنترجم له فى هذا الفصل .

وهكذا بدأ الطريق فى أرض الأندلس يفتح أمام هذا الاتجاه الشعرى المحدث ؛ فتلقاه بعض الشعراء بالإعجاب ؛ لأنه يعبر عن واقع حياتهم . ويصور فى دقة نزعاتهم ؛ حين يتحررون فيلهون ، وحين يتزمتون فيتزهدون ؛ ثم لأن أسلوبه فى جدته وتحضره ورقته أقرب إلى حياتهم الجديدة المتحضرة الرقيقة ، من هذا الأسلوب المحافظ القديم ، الذى يليق بسكان البادية .

فإذا كان الشعراء فى الأندلس من قبل قد آثروا الاتجاه المحافظ لدواع من حياتهم وواقعهم ، ودوافع من قيمهم ومثلهم ، فقد آثر بعض الشعراء الآن الاتجاه المحدث لدواع أخرى تتصل بالحياة الجديدة والواقع الجديد ، ولدوافع أخرى ترتبط بالقيم التى تغيرت والمثل التى تبدلت . فلم تعد حياة هؤلاء الشعراء فى مجتمعهم هى تلك الحياة البسيطة القريبة من حياة البداوة ، ولم تعد مثلهم مستمدة من عالم الآباء والأجداد فى البادية . وإنما أصبحت حياتهم هى تلك الحياة الأندلسية المتحضرة المترفة ، التى عرفت

اللهو العابث والتزمت الزاهد ، كما صارت مثلهم مستمدة من هذا الواقع الجديد ، الذى يعيشونه هم بكل ما يموج فيه من حسيات ومعنويات .

(ب) نموّ الاتجاه القديم

وبرغم دخول الاتجاه المحدث إلى الأندلس وانتشاره بين بعض الأندلسيين فى فترة صراع الإمارة ، قد ظل الاتجاه المحافظ قويـًّا نامياً ، وظل كثير من الشعراء متمسكين به سائرين على تقاليده . بل إن بعض الشعراء الذين أجادوا النظم على طريقة المحدثين ، كانوا أحياناً يفضلون النظم على طريقة المحافظين .

ولعل السبب فى ذلك أن الاتجاه المحافظ كان قد استقر فى الأذواق وتمكن من ملكات الشعراء . ولعل السبب أن هذا الاتجاه كان أليق بالموضوعات الجادة ، لما اقترن بالاتجاه المحدث من الاتصال بالموضوعات اللاهية .

على أن نمو الاتجاه المحافظ فى تلك الفترة كان فى الكم . ولم يتجاوزه إلى الكيف ؛ فقد اتسعت موضوعاته وزاد نتاجه وتعدد شعراؤه ، ولكن أسلوبه بقى على ما كان عليه من قبل ، ولم يطرأ عليه تغير ذوشأن ، برغم تغير الحياة والأحياء، وبرغم ظهور اتجاه جديد فى الفن الشعرى ، جدد الأسلوب فى ألفاظه وتراكيبه وموسيقاه .

وقد كان من مظاهر نمو الاتجاه المحافظ فى تلك الفترة توسيع ميادينه ، واتصاله بكثير من المظاهر الجادة للحياة الأندلسية فى تلك السنين . ومن ذلك ما يلى :.

مناصرة العنصرية

فقد كان لتلك الحركة العنصرية الناشبة بين العرب والمولدين سلاح من الشعر ، إذ وقف بعض الشعراء العرب الآباء إلى جانب المعسكر المنتصر للعروبة ، وراحوا يمجدون العرب ويفاخرون بهم وينافحون عنهم ويدعون إلى التكتل للقضاء على أعدائهم ،

كما وقف بعض الشعراء الإسبان الأصول فى صف المولدين المنافحين عن الإسبانية ، وأخذوا يجرحون العرب ويدعون إلى الخلاص منهم وكانت المعركة الشعرية تأخذ فى الغالب شكل النقائض ، حيث ينقض كل فريق ما يقوله الفريق الآخر بشعر من وزنه وقافيته .

وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة الشعوبية فى المشرق ، ولكن طبيعة الحياة الأندلسية ، والظروف التى أحاطت بالأندلسيين من عرب ومولدين فى تلك الفترة ، جعلت هذه الظاهرة ذات أصالة بعيدة عن مجرد التقليد لما كان فى المشرق من مظاهر شعوبية .

ومن نماذج الشعر المناصر للعنصرية فى الأندلس حينذاك ، قول شاعر مولد يلقب بالعبلى ، فى الهجوم على عرب إلبيرة :

منـازلهم منهم قفـار بلاقعُ ... تجارى السَّفَى[1] فيها الرياح الزعازعُ
وفى القلعة الحمراء تدبير زيغهم ... ومنهـا عليهم تستـدير الوقائع
كما حصدت آباءهم فى ضلالهم ... أسـنتنا والمرهفـات القواطع

وقد رد عليه الشاعر الأسدى شاعر العرب فقال :

منـازلنـا معمورة لا بلاقع ... وقلعتنا حصن من الضيم مانع
وفيهـا لنـا عز وتدبير نصرة ... ومنها عليكم تستتب الوقـائع
ألا فـأذنوا منـا قريبًا بوقعة ... تشيب لها ولدانكم والمراضع[2]

ومن نماذج هذا الشعر المناصر للعنصرية كذلك قول العبلى فى قصيدة له عن العرب :

قد انقصفت قنـاتهمُ وذُلُّوا ... وزُعزع ركنُ عزهم الأذلُّ[3]

---

(١) السفى : التراب .

(٢) وردت الأبيات السابقة فى المقتبس لابن حيان ص ٦٢ ، (الجزء الذى نشره ملتشور أنطونيا) .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦٤ .

ثم قول بعض[١] الشعراء العرب فى الرد عليه ، وفى تمجيد زعيم العرب بإلبيرة ، المسمى سوّار[٢] :

لِسَوَّار على الأعداء سيف ... أباد ذوى العداوة فاضمحلّوا
لقد ذلّت رقابهمُ (عبيداً)[٣] ... فصادهمُ شديدُ البأس صِلٌّ[٤]
سقاهم كأسَ حتف بعد كأس ... بها نهلَ العبيد معًا وعلّوا
وقد رُفعت لسوّار قناةٌ ... لها خضعت رقابهمُ وذلوا
قَتلتَ بواحد سوّارُ ألفا ... وألفهمُ بوحدانا يَقِلُّ
فأكثر قتلنا لهمُ حلالٌ ... بما ارتكبوه ظلمًا واستحلوا
فأوردنا رِقابهمُ سيوفًا ... تشب النار منها إذ تُسل
وقد سُفكت دماؤهمُ وطلّت ... وليس لنا دمٌ يوما يَطل
رواق المجد مضروب علينا ... منيع الجانبين فما يزل
سمونا فوق هام المجد قِدما ... وعرش المجد فيه لنا محل
ورثنا المجد عن آباء صدق ... وإرثكمُ — بنى العبدان — ذُلّ
وأخضعنا رقابكمُ فذلت ... فليست ما حييتم تستقل[٥]

ومن نماذج الأشعار المتصلة بالحركة العنصرية كذلك ، قول الشاعر الأسدى ، يدعو العرب جميعاً إلى الوحدة واليقظة ، ولا يفرق بين عدنانى وقحطانى ، ويقرر أن

---

(١) قيل هو سعيد بن جودى ، وقيل هو يحيى بن أخى يحيى بن صقالة أول الثائرين بالدعوة العربية . انظر المقتبس ص ٦٦ .

(٢) هو زعيم عرب إلبيرة قبل سعيد بن جودى .

(٣) مكان هذه الكلمة غير واضح بالأصل ، وقد أثبتنا ما يتفق مع السياق .

(٤) الصل : الحية أو الداهية .

(٥) وردت هذه الأبيات فى المقتبس ص ٦٦ .

من أعظم أمجاد العرب ودواعى سيادتهم كون النبى عليه الصلاة والسلام منهم ، وكون الخلفاء والمهاجرين والأنصار من آبائهم :

يا أيها العُرب فى [أقصى][1] محلتهم ... أنتم نيام ومن يشناكمُ سهِرُ
ما عيشُ عدنان دونَ الحى من يمن ... [ومن هم][2] يمنٌ قد خانهم مضر
إن السهام إذا ما فرقت كسرت ... وإن تجمعن [يومًا][3] ليس تنكسر
أنتم قليل ، كثير فى غنائكمُ ... وغيركم قُلُلٌ فيكم وإن كثروا
أليس منكم نبى الله أكرم مَن ... برا الإله ومن جاءت به السور
وصاحباه : أبو بكر خليفته ... وخدنه المرتضى مِن بعده عمر
ومعشر هاجروا فى الله ربهمُ ... والتابعون ومن آووا ومن نصروا
قل للقبائل من هود ومِن أدَد [4] ... تقبلوا النصح إذ قلناه أو فذروا
ما إن تركت لكم نصحًا لمنتصح ... والنصح عند ذوى الألباب مدخر [5]

وصف المعارك الحربية :

فقد سجل الشعر فى تلك الفترة بعض ما كان من معارك بين الأمراء الأمويين والخارجين عليهم ، ومجّد ما أحرزه هؤلاء وقوادهم من انتصارات ، وصور الجيوش فى زحفها المظفر ، وسخر من الأعداء فى انهزامهم المهين . ومن أمثلة هذا الشعر قول عباس بن فرناس فى حملات الأمير محمد :

---

(١) مكان هذه الكلمة غير واضح فى الأصل ، ولقد أثبتنا ما يوافق السياق .
(٢) لعل الأصل يوافق ما أثبتناه هنا ، فالكلمة غير واضحة فى الأصل .
(٣) قد أثبتنا ما يتفق مع السياق ، لأن الكلمة غير واضحة فى الأصل .
(٤) أدد على وزن عمر : أبو قبيلة من العرب .
(٥) وردت هذه الأبيات فى : المقتبس ص ٤ .

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحفِ ... لهوم الفلا عبل القبائل ملتف[١]

إذا أومضت فيه الصوارم خلتها ... بروقًا تراءى فى الحمام وتستخفى

كأن ذرى الأعلام فى ميلانها ... قراقير[٢] فى يمّ عجزنَ عن الجدف

وإن طحنَتْ أركانها كان قطبَها ... حجا ملكٍ ندْبٍ شمائله عف

سمىّ ختام الأنبياء محمد ... إذا وُصف الأملاك جلّ عن الوصف

إلى أن قال :

فما كان إلا أن رماهم ببعضها ... فولوا على أعقاب مهزولة كشْف[٣]

كأن مساعير الموالى عليهمُ ... شواهين جادت للغرانيق بالنسف[٤]

بنفسى تنانين[٥] الوغى حين جمعت ... إلى الجبل المشحون صفًّا على صف[٦]

التوجه إلى الرؤساء المنفصلين :

فقد خرج الشعر المدحى عن نطاق أمراء قرطبة ، واتجه إلى بعض هؤلاء الرؤساء المستقلين ببعض الجهات ؛ حيث كان بعض الشعراء يقصدونهم كما يُقصد الأمراء الأمويون فى قرطبة . وهكذا بدأت توضع أسس البلاطات الأدبية الإقليمية ، التى سيعلو شأنها فيما بعد ، وخاصة فى عصر ملوك الطوائف .

ومن أمثلة هذا الشعر المتجه إلى الرؤساء المنفصلين عن حكومة قرطبة ، قول ابن عبد ربه فى إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية :

---

(١) لهوم : ملتهم ، والعبل : الضخم .

(٢) القراقير : السفن الكبيرة .

(٣) الأكشف : من ينزم فى الحرب .

(٤) الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر جارح . الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طائر صغير .

(٥) التنانين : جمع تنين ، وهو حية عظيمة .

(٦) انظر هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١ وما بعدها .

ألا إنَّ إبراهيم لُجَّةُ ساحل ... من الجود أرست فوق لجة ساحلِ
فأشبيليَةُ الزهراء تُزهى بمجده ... وقَرْمُونَة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تحلتْ تلك من نور وجهه ... غدت هذه للناس فى زىّ عاطل
وإن حلَّ فى هذى توحَّش هذه ... فتهدى برُسْل نحوه ورسائل[1]

هذا وقد كان شعر الاتجاه المحافظ — كما تدل النماذج المتقدمة — مزيجاً من الجودة والرداءة ، ومن الفنيَّة والنظمية ؛ وذلك بسبب كثرة المتعلقين بقرض الشعر ، وتعدد الميادين التى يجول فيها القصيد ، واختلاف المزاولين لهذا الفن ، بين شاعر أصيل وناظم دعى . فنحن نجد بعض النماذج تصل إلى الغاية فى الجودة ، وهى تلك النماذج التى أنتجها فنانون أخلصوا للفن ، على حين نجد نماذج أخرى دون المستوى الفنى المرضى ، وهى تلك النماذج التى أنتجها أناس أعجلتهم المناسبات أو حركهم النفاق وحب الكسب .

(جـ) اختراع الاتجاه الشعبى (الموشحات)

أما الاتجاه الشعبى ، فقد نشأ فى الأندلس أواخر تلك الفترة وبدأ يأخذ طريقه فى الحياة الشعرية الأندلسية ، بجانب الاتجاهين الوافدين من المشرق . وقد عُرف شعر هذا الاتجاه الشعبى باسم الموشحات .

ويصف الباحثون الموشحات بالشعبية ؛ لأنها فى الواقع فنّ شعرى نشأ فى أوساط الشعب لإرضاء حاجة الشعب ، ولأنه كان يَستخدم فى بعض فقراته اللغة العامية ، ويعتمد فى تعابيره أحياناً على أجزاء من أغنيات شعبية . ولأهمية هذا الاتجاه الشعرى الذى نشأ فى أواخر تلك الفترة ، وكان له أثر كبير فى الغرب والشرق ، سنبسط القول فيه بعض الشىء ، فنقول :

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : المقتبس ص ٤ .

بناء الموشحة

الموشحة منظومة غنائية ، لا تسير فى موسيقاها على المنهج التقليدى، الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجديدى متحرر نوعاً؛ بحيث يتغير الوزن وتتعدد القافية ، ولكن مع التزام التقابل فى الأجزاء المتماثلة .

فالموشحة تتألف غالباً من خمس فقرات ، تسمى كل فقرة بيتاً . والبيت فى الموشحة ليس كالبيت فى القصيدة ؛ لأن بيت الموشحة فقرة أو جزء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار ، لا من شطرين فقط كبيت القصيدة . وكل فقرة من فقرات الموشحة الخمس ينقسم إلى جزأين : الجزء الأول مجموعة أشطار تنتهى بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة فى الوقت نفسه للمجموعة التى تقابلها فى فقرة أخرى من فقرات الموشحة . أما الجزء الثانى من جزئى بيت الموشحة ، فهو شطران — أو أكثر — تتحد فيهما القافية فى كل الموشحة . والجزء الأول الذى تختلف فيه القافية من بيت إلى بيت يسمى غصناً ، والجزء الآخر الذى تتحد قافيته فى كل الموشحة ، يسمى قفلا[1] .

هذا ما يتعلق بالقافية ، ويلاحظ أن فيها حرية وتنويعاً من جانب ، والتزاماً وتماثلا من جانب آخر . أما الحرية والتنويع فى الأغصان ، حيث تغاير قافية كل غصن قافية باقى الأغصان . وأما الالتزام والتماثل فى الأقفال حيث يجب أن تتحد قوافيها فى الموشحة كلها .

أما أوزان الموشحة ففيها كذلك حرية وتنويع يقابلهما التزام وتماثل . أما الحرية ففى جواز استخدام البحر الذى ستصاغ على وزنه الموشحة فى عدة حالات من حالاته ، أى من حيث التمام والجزء والشطر ، أو بعبارة أوضح ، يجوز فى الموشحة أن تكون بعض أشطارها من بحر على تفاعيله التامة ، وأن تكون بعض الأشطار الأخرى من نفس البحر ،

---

(١) هذه تسمية ابن سناء الملك فى كتابه دار الطراز ، أما ابن خلدون فى المقدمة فيسمى هذا الجزء شطراً .

ولكن على تفاعيله المشطورة أو المجزوءة ، فتأتى بعض الأشطار طويلة عديدة التفاعيل ، وتأتى أخرى فى نفس الموشحة قصيرة قليلة التفاعيل . بل إنه يجوز أن تأتى بعض الأشطار من بحر والبعض الآخر من بحر ثان[١] .

وأما الالتزام والتماثل ، ففى وجوب أن يأتى كل جزء من أجزاء الموشحة المتماثلة ؛ على وزن متحد . والأجزاء المتماثلة هى : الأغصان مع الأغصان والأقفال مع الأقفال . فإذا جاء الغصن فى الفقرة الأولى على وزن معين ، يجب أن تأتى كل الأغصان على نفس الوزن . وإذا جاء القفل الأول على طريقة خاصة من حيث طول الأشطار وقصرها من بحر ما ، يجب أن تأتى كل الأقفال على نفس الطريقة . ويلاحظ أن تلك الأقفال يجب أن توافق المطلع الذى يسبق عادة كل الفقرات ، وهذه الموافقة بين الأقفال والمطلع يجب أن تكون فى الوزن والقافية جميعاً .

وقد درج الباحثون على تسمية الأجزاء المختلفة للموشحة بأسماء اصطلاحية . وقد مضى بعض تلك الأسماء ، وهى : البيت للفقرة ، والغصن لمجموعة الأشطار التى تتغير قوافيها من فقرة إلى أخرى ، والقفل للأشطار التى تتحد قوافيها فى الموشحة كلها . وبقى أن نذكر أن القفل الأخير من الموشحة يسمى خرجة . وأن الموشح الذى ليس له مطلع يسمى الأقرع ، والذى يبدأ بمطلع يسمى التام[٢] .

ولعلنا بعد ما تقدم ندرك سر تسمية هذا النوع من النظم بالموشح أو الموشحة؛ فالوشاح : حلية ذات خطين يسلك فى أحدهما اللؤلؤ ، وفى الآخر الجوهر ، أو هو جلد عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها . والثوب الموشح هو الثوب المزين . فالفكرة إذن هى فكرة التجميل المنوع المعتمد على التقابل . وهكذا الموشح أو الموشحة

---

(١) راجع الموشحات الواردة فى دار الطراز ، وقارن أوزانها . وراجع ديوان ابن سهل الإشبيلى ، ففى موشحات دار الطراز وفى موشحات ابن سهل ما يؤيد هذه الظاهرة .

(٢) انظر تلك الاصطلاحات فى : دار الطراز لابن سناء الملك .

أيضاً ؛ فهى تزدان بالقوافى المنوعة والأوزان المتعددة ، ولكن مع التقابل فى أجزائها المتماثلة .

وهذا نموذج لموشحة ، نسوقه لكى تتضح تلك الأجزاء التى تؤلف هذا البناء الشعرى ، لا لنقدم شاهداً من موشحات تلك الفترة ، التى لا يوجد بين أيدى الدارسين اليوم شىء من موشحاتها . والموشحة لابن سهل الإشبيلى ، وهو من شعراء القرن السابع الهجرى[١] ، وقد أوردنا موشحته بدلا من تصوير بناء هذا النظم الأندلسى بالخطوط والرموز . يقول ابن سهل[٢] :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنسِ[٣]
فهو فى حر وخفق مثلمـا ... لعبتْ ريح الصبـا بالقبس

* * *

يا بدوراً أطلعت يوم النـوى ... غُرراً تسلك فى نهج الغَـرورْ
ما لعينى وحدها ذنب الهـوى ... منكم الحسن ومن عينى النظر
أجتنى بالذات مكروه الجـوى ... والتـذاذى من حبيبى بالفكـر
وإذا أشـكوه وجـدى بسمـا ... كالربى والعـارض المنبجسِ
إذ يقيم القطر فيهـا مأتما ... وهى مـن بهجتهـا فى عرُس

* * *

مَن إذا أملى عليـه حُرَقى ... طارحتنى مقلتـاه الدَّنَفا[٤]
تركتْ ألحاظـه مِن رمقى ... أثر النمـل على صُم الصَّفا[٥]

---

(١) انظر عنه بحثاً للمؤلف ، كتب بالإسبانية ، وعنوانه : El Poeta sevillano Ibrahim Ibn Sahl.

(٢) انظر هذه الموشحة فى ديوان ابن سهل الذى قام المؤلف بتحقيقه وشرحه وضبطه .

(٣) المكنس : ما يستتر فيه الظبى كالكناس .

(٤) الدنف : السقم والمرض .

(٥) الصفا : الحجارة الملساء .

وأنا أشكـــره فيمـــا بقى لست ألحـــاه على مـــا أتلفا
وهو عنـــدى عادل إن ظلمـــا ونصيحى نطقـــه كالخـــرَسِ
ليس لى فى الأمر حكم بعد ما حلّ من نفسى محل النفَس

• • •

غالبٌ لى غـــالب بالتوَدّه بأبى أفـــديه من جـــاف رقيقْ
ما علمنا قبـــلَ ثغر نضّده أقحوانًا[1] عُصرت منه رحيق
أخذت عينـــاه منـــه العربده وفؤادى سكره ما إن يفيـــق
فاحمُ الـلّمـــةِ معسولُ اللمى ساحر الغُنْج شهىُّ اللَّعَس[2]
وجهـــه يتلو الضحى مبتســـما وهو مـــن إعراضـــه فى عبس

• • •

أيهـــا السائل عن جُرمى عليهْ لى جزاء الذنب وهو المذنبُ
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقًا للشمس فيـــه مغـــرب
ذهّبتْ دمعىَ أشـــواقى إليـــه وله خـــد بلحظى مُذْهَب
يُنبت الوردَ بغـــرسى كلمـــا لحظتْـــه مقلتى فى الخُلَسِ
ليت شعرى أى شىء حرّما ذلك الـــورد عـــلى المغـــرس

• • •

أنفـــدت دمعىَ نار بى ضـــرامْ تلتظى فى كل حين مـــا تشـــا
هى فى خديه بَرد وســـلام وهى ضُر وحـــريق فى الحشـــا
أتّقِى منـــه على حكم الغـــرام أسداً ورداً وأهواه رشـــا[3]

---

(١) الأقحوان : زهر .
(٢) الغنج . الدل . واللعس : كون الشفة توشك أن تكون سوداء لشدة احمرارها .
(٣) الأسد الورد : الجريء . والرشا : الظبى إذا قوى ومشى مع أمه .

قلتُ لمَّا أن تبـدى معلما[١] وهـو من ألحاظه فى حـرس
أيهـا الآخـذ قلبى مغنمـا اجعل الوصل مكان الخُمُس[٢]

نشأة الموشحات :

والموشحات قد نشأت فى الأندلس ، أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكانت نشأتها فى تلك الفترة التى حكم فيها الأمير عبد الله ، وفى هذه السنين التى ازدهرت فيها الموسيقى وشاع الغناء من جانب ، وقوى احتكاك العنصر العربى بالعنصر الإسبانى من جانب آخر . فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية أولا ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً . أما كونها استجابة لحاجة فنية ، فبيانه أن الأندلسيين كانوا قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء ، منذ أن قدم عليها زرياب ، وأشاع فيهم فنه . والموسيقى والغناء إذا ازدهرا كان لازدهارهما تأثير فى الشعر أى تأثير . وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة فى الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى فى العصر الأموى ثم العباسى . وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة فى الأندلس حين ازدهر فيها الغناء والموسيقى فى الفترة التى نسوق عنها الحديث . فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة ، إزاء الألحان المنوعة ، وشعروا بجمود الشعر فى ماضيه التقليدى الصارم ، أمام النغم فى حاضره التجديدى المرن . وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون من الشعر جديد ، يواكب الموسيقى والغناء فى تنوعهما واختلاف ألحانهما . ومن هنا ظهر هذا الفن الشعرى الغنائى الذى تتنوع فيه الأوزان وتتعدد القوافى ، والذى تعتبر الموسيقى أساساً من أسسه ؛ فهو ينظم ابتداء للتلحين والغناء .

---

(١) الفارس المعلم : من يتخذ علامة مميزة حتى لا يخفى .

(٢) المراد بالخمس هنا : خمس الغنيمة الذى يعطى للفقراء . من قوله تعالى .« واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه » الآية .

وأما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية . فبيانه أن العرب امتزجوا بالإسبان ، وألفوا شعباً جديداً فيه عروبة وفيه إسبانية ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج ، أن عرف الشعب الأندلسى العامية اللاتينية Romance ، كما عرف العامية العربية ؛ أى أنه كان هناك ازدواج لغوى نتيجة للازدواج العنصرى[١] .

وكان لابد أن ينشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية ، فكانت الموشحات . فمن المقرر أن الموشحات كانت منذ نشأتها إلى ما بعد ذلك بقرون تنظم بالعربية الفصحى ، إلا الفقرة الأخيرة منها وهى الخرجة ، فقد كانت تعتمد على عامية الأندلس . ومعروف أن تلك العامية كانت هى عامية العربية المستخدمة لألفاظ من عامية اللاتينية . وفى ذلك يقول ابن بسام ، فى حديثه عن مخترع الموشحات إنه « كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويصنع عليه الموشحة »[٢] .

فكأن الموشحات إذن لها جانبان : جانب موسيقى يتمثل فى تنويع الوزن والقافية ، وهذا قد جاء استجابة لحاجة الأندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء. وجانب لغوى ، يتمثل فى أن تكون الموشحة فصيحة فى فقراتها عامية فى خرجتها ، وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية .

مخترع الموشحات :

وقد كان مخترع الموشحات فى الأندلس شاعراً من شعراء فترة الأمير عبد الله ، اسمه مقدَّم بن معافى القَبْرى . وقد جاء فى بعض نسخ كتاب الذخيرة لابن بسام أن مخترع الموشحات اسمه محمد بن محمود . والمرجح أن مخترع هذا النوع الشعرى هو

---

(١) راجع الحديث الخاص باللغات فى الأندلس فى تمهيد هذا الكتاب .

(٢) انظر : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١ .

مقدم بن معافى ، وعلى ذلك أكثر الباحثين [١] . على أن ابن بسام لم يجزم حين ذكر هذا الأخير ، وإنما قال : « وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها — فيما بلغنى — محمد بن محمود القبرى الضرير » [٢] . ولعل كون الشاعرين من قَبَرة[٣] جعل ابن بسام يضع اسمًا محل اسم ؛ فكأنه قد بلغه أن الشاعر القبرى فلانًا قداخترع الموشحات . فذكر اسم محمد بن محمود ونسى اسم مقدّم .

ولعل من تمام الحديث عن مخترع الموشحات أن نشير إلى أن بعض الباحثين قد فهم أن مخترع الموشحات هو الشاعر العباسى عبد الله بن المعتز ؛ والسبب فى هذا الفهم أن موشحة قد وردت فى الديوان المطبوع لهذا الشاعر العباسى . وقد كان ابن المعتز معاصراً لمقدّم بن معافىَ ، وليس بين أيدينا شىء من موشحات هذا الأندلسى ، على حين يحتوى ديوان ابن المعتز على موشحة ، فكل هذا قد أوهم أن ابن المعتز هو صاحب أول موشحة ، وأن المشرق هو مصدر هذا النوع الشعرى . والحق أن ابن المعتز لم يقل تلك الموشحة الواردة فى ديوانه ، وإنما هى لشاعر أندلسى وشاح ، هو ابن زُهر الحفيد [٤] . وقد وردت هذه الموشحة منسوبة إلى هذا الأندلسى فى كثير من المصادر الموثوق بها مثل جيش التوشيح لابن الخطيب ، والمُغرب لابن سعيد ، ومعجم

---

(١) ممن ذكروا اسم مقدم بن معافى كمخترع للموشحات : ابن خلدون فى المقدمة ص ٥٨٤ وقد ورد اسمه خطأ فى بعض طبعات المقدمة ، فجاء مثلا : مقدم بن معافر الفريرى . ولكن مراجع أخرى تصحح اسمه ، كالمقتبس لابن حيان ص ٤٦ ونفح الطيب للمقرى جـ ٤ ص ١٩٥ وجذوة المقتبس للحميدى ، ترجمة رقم ١٣٨٦ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٣) قبرة : بلدة قرب قرطبة . وكان منها مقدم بن معافى ومحمد بن محمود ، انظر : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ٢٨٥ ، ١٣٨٦ .

(٤) انظر ترجمته فى ابن أبى أصيبعة (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (جـ ٢ ص ٦٧ وما بعدها .

البلدان لياقوت وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة [١] . وهناك شيء آخر ينفي نسبتها لابن المعتز ، وهو أن نظام تلك الموشحة وأسلوبها وروحها موافقة كلها لموشحات أخرى أثرت عن هذا الشاعر الأندلسي [٢] ، على حين لايعرف لابن المعتز شيء من الموشحات التي ترجح نسبة هذا النص إليه . ومما يؤيد ماتقدم ، أن أحداً من الذين كتبوا عن ابن المعتز أو ترجموا له لم يذكر أنه كان وشاحًا . وأخيراً لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة ، لشاع عنه في المشرق هذا الفن ، ولرأينا له ولغيره من شعراء المشرق نماذج من هذا اللون ، الذي كان يناسب مستحدثاتهم ومايميلون إليه من تجديد . فنحن لم نر للمشارقة موشحات ، ولم يُذكر أحد منهم في الوشاحين ، إلا بعد أن اشتهر هذا الفن في الأندلس وكثر أعلامه ، وذلك بعد نحو ثلاثة قرون من نشأة الموشحات .

وهكذا ينبغي أن يكون المشرق منشأ هذا اللون الشعري ، بعد أن انتفى كون ابن المعتز صاحب الموشحة الواردة خطأ في ديوانه المطبوع ، بفعل بعض الساهين أو المدلسين من النساخ .

وتلك هي الموشحة التي أوقعت بعض الباحثين في الخطأ :

أيهـا الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونـديم هِمتُ في غـرّته
وشـربت الـراحَ مـن راحتـه
كلمـا اسـتيقظ مـن سكرته
جـذب الزّق إليـه واتّكى وسـقاني أربعًـا في أربع

غصن بان مال من حيث استوى

---

(١) انظر المغرب لابن سعيد جـ ٢ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ومعجم الأدباء لياقوت جـ ١٨ ص ٢١٩ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة جـ ٢ ص ٧٢ .

(٢) أورد ابن أبي أصيبعة عدة موشحات مماثلة كلها لابن زهر . انظر صفحات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .

بات مَن يهواه من فرط الجوى
خافقَ الأحشاء موهون القوَى
كلما فكَّرَ فى البين بكى ما له يبكى بما لم يقع

ليس لى صبر ولا لى جلدُ
يا لقومى عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يُشتكَى كمدُ اليأس وذل الطمع

ما لعينى عَشِيَتْ بالنظرِ
أنكرتْ بعدك ضوءَ القمرْ
وإذا ما شئتَ فاسمع خبرى
شقيتْ عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى

كبدٌ حرّى ودمع يَكِفُ
يعرف الذنب ولا يعترف
أيها المعرض عما أصف
قد نما حبك عندى وزكا لا يظن الحبُّ أنى مدعى[1]

أساس الموشحات :

ولكن هل استوحى مُقدّم بن معافى مخترع الموشحات نموذجًا مشابهًا ، أو بنى على أساس قديم حين اخترع موشحته الأولى ؟ لقد ثبت أن المشارقة قد عرفوا — قبل الموشحات — لونًا من الشعر تتعدد فيه القوافى ، أو تنظم فيه القصيدة على فقرات تختلف

(١) انظر هذه الموشحة فى المصادر السابقة ، وانظر أيضاً : دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق جودت الركابى ص ٧٣ . وقد اختلفت بعض ألفاظها من مصدر إلى آخر . كما اختلف وضع بعض الأغصان.

قوافيها ، كالرباعيات والمسمطات . فهل تأثر مخترع الموشحات بشيء من ذلك ، فطوّره وبنى عليه[١] ؟ يبدو أن هذا الاحتمال بعيد ؛ لأننا لانعرف للأندلسيين رباعيات ولا مسمطات فى تلك الفترة من تاريخها . حتى نقطع ببناء الموشحات على هذا النوع من النظم .

وقد ثبت كذلك أن العناصر الإسبانية كانت تخالط العرب فى المجتمع الأندلسى ، وأن لغة الإسبان « الرومانثى » كانت تصاحب اللغة العربية ، ومن المعقول أن يكون للإسبان فنهم ، وأن تكون للغتهم بعض الأغانى . فهل يمكن أن يقال : إن مؤلف الموشحات قد اعتمد على بعض الأغنيات « الرومانثية » حين نظم موشحته الأولى ؟ يبدو كذلك أن هذا لم يكن ؛ لأنه ليس بين أيدينا شيء من تلك الأغنيات ذات الأصل الرومانى حتى نقارنها بالموشحات ونطمئن إلى أنها كانت الأساس .

وقد ذكر الأستاذ « ربـــيرا Ribera » صاحب الفرض السابق ، احتمالا آخر يقول : إن أكثر البيوت الأندلسية كانت تضم نساء من جِلِّيقية ، لأنهن عُرفن أكثر من غيرهن بالجمال وكثير من المزايا الأخر ، وإن هؤلاء الجليقيات كن يغنين بلغتهن فى الحفلات ، ويهدهدن أطفالهن فى المنازل ، ويسرين عن أنفسهن فى ساعات العمل . فمن الممكن أن تكون الموشحات الأولى قد تأثرت ببعض الأغنيات الجليقية القديمة[٢] . ولكنا نستبعد كذلك هذا الافتراض الذى ذكره المستشرق الإسبانى ؛ لأنه ليس بين أيدى الباحثين كذلك شيء من أغنيات جليقية ، يمكن أن يُثبت قرابة بين تلك الأغانى والموشحات .

---

(١) يقول الأستاذ « هارتمان » Hartman إن فن الموشحات كان إحياء لفن التسميط (عن الزجل فى الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهوانى ص ٥) .

(٢) انظر البحث القيم الذى كتبه عن ابن قزمان الأستاذ : Julian Ribera فى كتابه : Disertaciones y opusclos. Vol. I.

كذلك ثبت أنه كان لليهود المعايشين للمسلمين فى الأندلس بعض الأناشيد الدينية مثل « البزمون Pizmon » وهذه الأناشيد يشبه بعضها الموشحات . فهل كانت تلك الأناشيد مصدر وحى لمخترع الموشحات حين نظم محاولته الأولى ؟

نحن كذلك نستبعد هذا الرأى الذى قال به الأستاذ « مليلس ڤيليكروسا » Milias Villicrosa المستشرق الإسبانى ، المتخصص فى الدراسات العبرية [١] . نستبعده لأننا نستبعد أن يتأثر المسلمون الأندلسيون بشىء يهودى متصل بالدين ؛ فهم قد عرف عنهم التعصب الشديد ، والنفرة الواضحة مما يشوب العقيدة ، حتى كانوا ينفرون من الفلسفة ، بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم ، فكيف نعقل أنهم تأثروا ببعض الأناشيد اليهودية الدينية ؟ !

والذى يمكن الاطمئنان إليه : هو أن الموشحات قد بنيت على أغنيات أندلسية محلية[٢] واستوحت بعض أغانى الأندلسيين الشعبية ، التى لم يسجلها المؤرخون ؛ فالمعقول أن يكون للأندلسيين أغان شعبية كأى شعب له أغانيه ، والمعقول أن تكون هذه الأغانى منوعة القافية . وقد نظمت باللغة العامية الأندلسية التى تمتزج فيها العربية « بالرومانثى » ، والمعقول أن مخترع الموشحات إنما أفاد من هذه الأغنيات الشعبية ؛ لأنه سيأخذ غالبًا ألفاظا عامية يجعلها مركز موشحته ، كما أخبرنا ابن بسام فى حديثه عن نشأة الموشحات . والأغنيات هى المدد الأول لتلك الألفاظ ، وخاصة حين يكون الاقتباس لعمل مشابه . وهو الموشحات ذات النشأة الغنائية . ويؤيد هذا أن العادة جرت بين الوشاحين على أن يمهدوا للخرجات بمثل قولهم : « غنّت » . وشبيه بهذا ما

---

(١) انظر كتابه : La poesia sagrada, pp. 27 ff. .

(٢) انظر : الزجل فى الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهوانى ص ٢ وما بعدها . وانظر مقالا له فى المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧ .

يحصل فى أيامنا، حين يعمد مؤلف أغان حديث إلى بعض الأغنيات الشعبية القديمة التى لايُعرف لها مؤلف ، فيأخذ بعض أجزائها ويجعله أساسًا لأغنيته .

تطور الموشحات :

وقد كانت فترة نشأة الموشحات ، كفترة نشأة أى فن ، من حيث مشاهدتها لأولى المحاولات التى يعفى عليها الزمن غالبًا . ومن هنا ، ولبعد الزمن بتلك الفترة ، لم تبق لنا من هذه الموشحات الأولى التى نظمها مُقدّم وأمثاله أية نماذج . ولكنا نستطيع أن نتصورها موشحات بسيطة التركيب قليلة التعقيد ، تتخذ مجالها من الموضوعات الغنائية كالخمر والطبيعة والغزل ، وتكتب كلها باللغة العربية ، فيما سوى الخرجة ، التى تكتب باللغة الأندلسية الشعبية . كما كانت تُرضى بقالبها ولغتها وأغراضها حاجة الأندلسيين حينئذ ، وتعكس اختلاط عنصريهم وامتزاج لغتيهم ، وشيوع الغناء والموسيقى بينهم .

وقد تطورت الموشحات بعد فترة نشأتها تطورات عديدة ، وكان من أهمها تطور أصابها فى القرن الخامس الهجرى ، أيام ملوك الطوائف . ثم تطور آخر بعد ذلك بقليل فرّع عنها مايسمى بالزجل ، حتى أصبح هذا الاتجاه الشعبى ممثلا فى لونين : لون الموشحات ، وقد صارت تكتب جميعًا باللغة الفصحى ، ولون الأزجال ، وقد صارت تكتب جميعًا باللغة العامية .

وانتقل هذان اللونان من الأندلس إلى المشرق ، فكثر فيه الوشاحون والزجالون . وعرفهما كذلك الأدب الأوربى ، فتأثر بهما شعراء جنوب فرنسا المسمون « التروبادور Trovadores » ، كما تأثر بهما كثيرون من الشعراء الإسبان الغنائيين . وانتقل التأثير إلى الشعر الإيطالى ممثلا فى عدة أنواع ، مثل النوع الدينى المسمى « لاودس Laudes » والنوع الغنائى المسمى « بالاتا Ballata » .

وقبل أن نختم حديث الموشحات ، نعرض نموذجًا يتضح معه ما سبق أن ذكرناه

من اشتمال الخرجات كثيراً على ألفاظ من عامية الأندلس التى تمتزج فيها العربية « بالرومانثية » .

يقول بعض الأندلسيين [١] :

لحظـاتٌ بابِليَّـهْ متّعت قلبى عشقـا
ولَمَى ثغـر دفلّجْ لائمى منـه موقى

* * *

بأبى لـو رق قلبـهْ سـاكن مثـواه قلبى
قلمـا يأمن سِرْبُهْ أو يرَى روعةَ سربى
حَسْبُ عذالى وحَسْبه فأنا قد ضـاع حسبى
هـذه يا عاذليَّـهْ من سمات الحب حقا
زفـرات تتـوهجْ وهى فى دمعىَ غرقَى

ثم يمضى الشاعر فى ذكر أغصان موشحته وأقفالها ، حتى يختتمها بهذه الأشطر :

ألْبُ ديهْ إشْتِ ديهَهْ دِىَ ذا العَنْصَرَ حقّا
بِشْتِرِى مُو ألمدَبَّجْ ونشقُ الـرمح شـقا

فهذا الختام الذى ختمت به الموشحة مزيج من ألفاظ عربية وأخرى « رومانثية » والفقرة الأولى معناها : « هذا اليوم يوم فجرى » أى مشرق . فالكلمة الأولى منها وهى كلمة « ألب» من الكلمة الإسبانية alba بمعنى فجر ، والكلمة الثانية وهى « ديه » معناها : يوم، وهى فى الإسبانية dia ، والكلمة الثالثة وهى « إشت» معناها : هذا . وهى فى الإسبانية este . أما الفقرة الثانية ، فمعناها « يوم العنصرة حقّا » ، والعنصرة عيد من أعياد الأندلسيين . والكلمة الأولى وهى «دى» معناها : يوم ، ويبدو أنها كانت تنطق « دية »

(١) هو أبو بكر بن بقى المتوفى سنة ٥٤٠ هـ وكان من أعلام الوشاحين فى عهد المرابطين .

و« دِىَ » . . وأما الفقرة الثالثة ، فمعناها « سألبس مدبجى» . والكلمة الأولى وهى « بشترى» هى التى صارت فى الإسبانية Vestiré أى سألبس . والكلمة الثانية وهى « مو» هى ضمير الملك للمتكلم المفرد المذكر ، وقد صارت فى الإسبانية mi أو Mio . وأما الفقرة الأخيرة فهى عربية كلها. وعلى ذلك يكون معنى هذا الختام بجملته : هذا اليوم يوم فجرى ، إنه يوم عيد العنصرة . سوف ألبس ثوبى المزين . وأشق الرمح شقا[١].

(د) الشعراء :

وقد عرفت الأندلس فى تلك الفترة عدداً وفيراً ممن يقولون الشعر ، وقد كان من هؤلاء بقية باقية من شعراء الفترة السابقة ، كعباس بن ناصح ، وحسانة التميمية ؛ كما كان منهم من امتد به الأجل إلى الفترة اللاحقة ، مثل ابن عبد ربه ، ومقدم بن معافى.

وممن اشتهر فى عهد عبد الرحمن الأوسط : ابن الشمّر ، وابن قَزْمان ، والغزّال . وممن عرف فى عهد الأمير محمد : عباس بن فرناس ، والعتّبى . وممن ذكر فى عهد المنذر وعبدالله : ابن عبد ربه ، والقلفاظ ، وعبديس بن محمود وابن قُلزم . وكان كثير من العلماء غير المتفرغين للشعر يقرضه أحيانًا ، مثل : عبد الملك بن حبيب ، الذى عرف بالتاريخ ، وسعيد بن عبد ربه ، الذى عرف بالطب ، وابن فرناس الذى عرف بالطبيعيات . هذا ، ولم يكن جميع الشعراء من ذوى الأصول العربية ؛ بل كان منهم مولدون ، كالعبّلى الذى أوردنا له بعض الشعر ، بل لم يكن قول الشعر العربى مقصوراً على المسلمين من سكان الأندلس ، وإنما كان يقوله كذلك المسيحيون المستعربون كما تُقرر ذلك شكوى القس ألفارو القرطبى ، التى سلفت فى غير هذا المكان [٢].

---

(١) نشر الموشحة السابقة ودرس خرجتها وحل غوامضها الأستاذ جارثيا جومث فى مقال له عن الموشحات فى مجلة الأندلس سنة ١٩٥٤ ، وهو ينقل عن مخطوط اسمه عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس لابن بشرى الغرناطى ، وهذا المخطوط ملك الأستاذ كولان المستشرق الفرنسى .

(٢) انظر ما كتب عن اللغات فى الأندلس فى تمهيد هذا الكتاب .

وليس من المستطاع الترجمة فى هذا المقام لكل شعراء تلك الفترة ولا لأكثرهم ولا لأجودهم وحسبنا أن نترجم لشاعرين يمثل أحدهما الاتجاه المحدث، ويمثل الآخر التقليدى:

يحيى الغزّال [١] :

اسمه يحيى بن حكم، ويلقب بالغزّال لوسامته وظرفه. وأصله من جيّان، وينسب إلى أسرة تنتمى إلى بكر بن وائل. وقد ولد الغزال سنة ١٥٦ هـ. ونشأ نشأة علمية أدبية غير أن الشعر غلب عليه فاشتهر به.

وقد كان للغزال من المواهب الخلقية والخُلقية، ما جعله يُختار لبعض الأعمال الكبيرة فى إمارة قرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط. لكن طبعه المتحرر كان يصل أحيانًا إلى درجة الاستهتار، فيجر عليه كثيراً من الشر، ويقف دون بلوغه أسمى المناصب التى كان بها جديراً. حدّث أن ولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار [٢]، واختزانها فتصادف أن قل الطعام فى تلك السنة. وارتفع سعر الحاصلات، فباع الغزال ما اختزنه من حاصلات كان قد جباها كأعشار للدولة، واستبدل بها نقوداً. فلما علم بذلك الأمير، غضب وقال: إننا نعد ذلك لنفقات الجند والحاجة عند الجهد. وأمر بأن يؤخذ من الغزال الثمن الذى باع به الحاصلات، وكانت الحاصلات قد كثرت حينئذ ورخصت أسعارها، فأبى الغزال أن يدفع ثمن الحاصلات التى باعها، وقال: إنما أشترى لكم من الطعام عدد مابعت من الأمداد. فلما علم الأمير بذلك أمر بسجنه

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره فى: المطرب لابن دحية ص ١٣٣ – ١٥٦، ونفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٤٤١ – ٤٤٦، وجذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٨٨٧، وبغية الملتمس للضبى ترجمة رقم ١٤٦٧، والمغرب لابن سعيد جـ ٢ ص ٥٧، ٥٨، والمقتبس لابن حيان (الجزء الذى يتناول عصرى الحكم وعبد الرحمن الأوسط، وهو مخطوط كان عند الأستاذ ليڤى بروفنسال).

(٢) نوع من الضرائب المفروضة على الأرض.

وقد كتب الشاعر من محبسه فى قرطبة قصيدة جميلة ، ضمنها تبرير تصرفه ، وبدأها بالغزل فقال :

بعضَ تصابيكَ على زينبِ ... لا خيْرَ فى الصبوة للأشيب
أبعدَ خمسين تقضَّيتها ... وافية تصبو إلى الرَّبرَب (١)

ثم انتقل إلى مدح الأمير قائلاً ،

من مُبْلغ عنى إمام الهُدى ... الوارث المجد أبًا عن أب
أنى إذا أطنَب مُدَّاحُه ... قَصدت فى القول فلم أُطْنِب
لا فكَّ عنى الله إن لم تكن ... أذكرتَنا من عُمَرَ الطيب
وأصبح المشرقُ من شوقه ... إليك قد حنَّ إلى المغرب
منبره يهتفُ من وجده ... إليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذى قد دنا ... وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر ... طار لوافى خطفةَ (٢) الكوكب
إلى جميل الوجه ذى هيبة ... ليست لحامى الغابة المغضب
لا يُمكنُ الناظرَ من رؤية ... إلا التماح الخائف المذنب

وانتهى بعد ذلك إلى المشكلة فقال :

إن تُرد المالَ فإنى امرؤٌ ... لم أجمع المالَ ولم أكسب
إذا أخذتَ الحق منى فلا ... تلتمس الربح ولا ترغب
قد أحسن الله إلينا معًا ... إن كان رأس المال لم يذهب (٣)

---

(١) الربرب : بقر الوحش .
(٢) الخطفة : السرعة .
(٣) انظر هذه الأبيات وسبب قولها فى : المطرب لابن دحية ص ١٣٣ – ١٣٦ .

وقد عفا الأمير عنه بعد سماعه هذا الشعر ، وأسند إليه بعد ذلك مهام جليلة ، كان من أخطرها إيفاده فى سفارة إلى إمبراطور بيزنطة المسمى « توفلس Theophile » الذى كان قد أرسل سفارة إلى الأمير الأموى ، يعرض معها صداقته ويطلب من عبد الرحمن مودته ، ويبدى رغبة فى عقد معاهدة بين القسطنطينية وقرطبة [١] .

وقد قام الغزال بسفارة قرطبة لدى إمبراطور البيزنطيين [٢] خير قيام، وكان يصحبه فى تلك المهمة السياسية أندلسى عالم ، يسمى يحيى بن حبيب ، ولكن شخصية الغزال القوية جعلته كل شىء فى تلك السفارة التى خلفت شعراً من خير ماجادت به قريحة الشاعر .

فقد هاج البحر ، والغزال وصاحبه يركبان السفينة فى اتجاه القسطنطينية ، وأحدق بهما الخطر ، فاشتدت العاصفة وعلا الموج، فقال الغزال فى ذلك :

قال لى يحيى وصِرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياحٌ من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتّت عُرا تلك الحبال
وتمطّى ملَك الموت إلينا عن حيال
فرأينا الموتَ رأى العين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا يا رفيقى رأس مال[٣]

---

(١) انظر تحقيق هاتين السفارتين فى كتاب . الإسلام فى المغرب والأندلس، للأستاذ ليڤى بروفنسال ص ٩٥ – ١١٤ (والكتاب مترجم عن الفرنسية بأقلام الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى والدكتور لطفى عبد البديع) .

(٢) ذكر ابن دحية فى المطرب أن سفارة الغزال كانت إلى ملك المجوس ، أى « النورمان » وذكر نفس الأحداث والأشعار التى أوردها ابن حيان فى المقتبس فى حديثه عن رحلة الغزال إلى إمبراطور القسطنطينية . وقد أثبت الأستاذ ليڤى بروفنسال فى كتابه السابق « أن الرحلة لم تكن إلى ملك المجوس ، وأنها كانت إلى إمبراطور القسطنطينية ، وأن ابن دحية قد اعتمد على عناصر قصصية خيالية ولم يعتمد على حقائق تاريخية » . على أنه لا يبعد أن يكون الغزال قد قام برحلة إلى القسطنطينية، وبأخرى إلى بلاد النورمان ، الذين كانوا قد هاجموا الأندلس فى أيامه ، والذين سماهم بعض المؤرخين بالمجوس .

(٣) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٣٩ ، ونفح الطيب جـ ١ ص ٤٤٤ .

ثم نجا الغزال وصاحبه ، ووصلا إلى حيث أرسلا ، وتهيأ الإمبراطور البيزنطى لاستقبال سفير عبد الرحمن الأوسط ، وأخبر الغزال بتقاليد بلاط بيزنطة ، التى تقضى بأن يدخل الزائر على الإمبراطور ساجداً ؛ فرفض الغزال ذلك ، واشترط ألا يخرج هو وصاحبه عن شىء من سنتهما ، فووفق على ذلك ، لكن المسئولين فى بلاط القسطنطينية تحايلوا ، فجعلوا المدخل المؤدى إلى الإمبراطور منخفضاً حتى لا يدخله داخل إلا راكعاً ، فلما جاء الغزال للدخول على الإمبراطور ورأى الباب كذلك ؛ جلس على إليتيه ومد قدميه وزحف حتى دخل من الباب ثم استوى قائماً ، ثم حيا الإمبراطور بكلمة ترجمت له ، فأعجب بها ، وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ودا هية من دهاتهم ، أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه .

قالوا : ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة « ثيودورا Theodora » البيزنطية ؛ فقد كان يوماً يجلس مع الإمبراطور ، فدخلت زوجته وعليها زينتها ، وهى تبدو كالشمس بهاء طلعة ؛ فجعل الغزال يتأملها ولا يميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه ، وهو لا يلتفت إلى مايقول ، وإنما هو منصرف بكل كيانه إلى الملكة الجميلة ، فأنكر عليه الملك ذلك ، وطلب من الترجمان أن يسأله عن تصرفه غير اللائق ، فأجاب الغزال قائلا للترجمان : «عرّفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ماقطعنى عن حديثه ؛ فإنى لم أر قط مثلها » وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها . فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله .

وقد أمرت له بهدية فامتنع عن قبولها . ولما طلبت من ترجمانها سؤاله عن سبب الرفض ، أجاب الغزال : إن صلتها لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشريف . . ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها علىّ . . . فقالت لترجمانها : متى أحسَبَ أن يأتينى زائراً فلا يحجب[1] .

---

(١) انظر : المطرب لابن دحية ص ١٤٢–١٤٣ ، والإسلام فى المغرب والأندلس ص ١٠٧–١٠٨ .

وهكذا كسب الغزال مودة الملكة ، كما اكتسب إعجاب الملك ، وظل على صلة حسنة بها طيلة مقامه بالقسطنطينية .

وقد خلقت تلك الصلة بين الغزال والإمبراطورة « ثيودورا » بعض الشعر الغزلى الممزوج بالدعابة .

سألت الإمبراطورة الغزال مرة عن سنه — وكان قد أصبح فى حدود الخمسين — فأجاب مداعبًا : عشرون سنة ؟ فقالت للترجمان : كيف يكون له هذا الشيب وهو ابن عشرين ، فقال الغزال للترجمان : ألم تر قط مُهراً يولد وهو أشهب ؟ فلما نقلت إجابته إلى الإمبراطورة أعجبت برده . وفى هذا يقول الغزال :

كُلِّفتَ يا قلبى هوى متعبا ... غالبتَ منه الضيغم الأغلبا
إنى تعلقت مجوسية ... تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله لى حيث لا ... يلقى إليها ذاهب مذهبا
يا تود[1] يا رُودَ الشباب التى ... تُطلع من أزرارها الكوكبا
يابأبى الشخص الذى لا أرى ... أحلى على قلبى ولا أعذبا
إن قلتُ يومًا إن عينى رأت ... مشبهه لم أعدُ أن أكذبا
قالت : أرى فوْديه[2] قد نوَّرا ... دعابةً توجب أن أدعبا
قلت لها : يا بأبى إنه ... قد يُنتَج المُهر كذا أشهبا[3]
فاستضحكتْ عجبًا بقولى لها ... وإنما قلت لكى تعجبا[4]

---

(١) جاء هذا الاسم فى المطرب (نود) ولكنه جاء فى النفح (تود) وهو الأصح ، فاسم الإمبراطورة فى الرواية العربية (تود) الذى يمكن أن يكون ترخيما « لتيودورا » .
انظر : المطرب ص ١٤٤ ، والنفح جـ ١ ص ٤٤٣ ، والإسلام فى المغرب والأندلس صفحة ١١٣.

(٢) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن .

(٣) الشهب والشهبة : بياض فيه سواد .

(٤) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٤٤ والنفح جـ١ صفحة ٤٣ .

وحسنت له يوماً خضاب شعره فقال :

بكرتْ تحسن لى سواد خِضابى ... فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف ... إلا كشمس جللت بضباب
تخفَى قليلا ثم يقشعها الصَّبا ... فيصير ما سُتِرت به لذهاب
لا تنكرى وضَحَ المشيب فإنما ... هو زهرة الأفهام والألباب
فلدىَّ ما تَهوين من شأن الصِّبا ... وطلاوة[1] الأخلاق والآداب[2]

وذكروا أن الإمبراطورة أتت مرة لزيارة الشاعر فى القصر الذى أعد لضيافته ، واصطحبت معها ابنها الأمير ميشيل ، وكان شاباً يحب الشراب فأحضر معه نبيذاً . فنظم الشاعر فى ذلك قصيدة يقول فيها :

وأغيدَ ليِّنِ الأطراف رخص[3] ... كحيل الطرف ذى عنق طويلِ
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيلِ
مِنَ ابناء الغطارف[4] قيصرىّ ... عمومة حين يُنسبُ والخؤول
كأنَّ أديمه نِصفاً بصفٍ ... من الذهب الدَّلاص أو الوذيل[5]
وربَّتما أكرّرُ فيه طَرْفى ... فأحسب أنه من عظم فيل
على قد سواء لا قصير ... فتحقره ولا هو بالطويل
ولكنْ بين ذلك فى اعتدال ... كغصن البان فى قرب المَسيل
يحنُّ إلىَّ مطَّرِفاً لشكلى ... ويكثر لى الزيارة بالأصيل

---

(١) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول .

(٢) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٤٦ .

(٣) الأغيد : الناعم المتثنى ، والرخص : اللين .

(٤) الغطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخى السرى .

(٥) الدلاص : البراق . والوذيل : جمع وذيلة وهى القطعة من الفضة المجلوة .

أتى يومًا إلىَّ بـــزِق خمـــر شمولِ الريح كالمسك الفتيل[١]
ليشربها معى ويبيتَ عنـــدى فيثبت بيننـــا ود الخليـــل
وجـــاءت أمـــه معـــه فكانا كأم الخشف والرشأ[٢] الكحيل
توَصّينى بـــه وتقول أخشى عليـــه البرد فى الليـــل الطويل
فقلتُ حمـــاقةً منى ونَوْكًا[٣] فديتك لستُ من أهل الشّمول
فأيّةُ غـــرّة ســـبحان ربى لو انى كنت من أهل العقول[٤]

ثم عاد الغزال من رحلته . ورأى زريابًا يتمتع بنفوذ هائل عند الأمير عبد الرحمن الأوسط فى قرطبة والأندلس جميعًا ؛ فهجاه . ووصل ذلك الهجاء إلى مسامع الأمير — وكان كما هو معروف يؤثر زريابًا ويخصه بالعطف — فقرر نفى الغزال . وقد شفع له بعض أهل الخير ، فعفا عنه الأمير ، غير أن الغزال ضاق بالحياة فى الأندلس بعد هذا . ورحل إلى المشرق . وهناك التقى بتلاميذ أبى نواس — وكان ذلك بعد موت الشاعر المشرقى بقليل — فراع الغزال مارأى من تهوين تلاميذ أبى نواس من شأن شعراء الأندلس ؛ فتركهم حتى أخذوا فى الحديث عن أبى نواس ، ثم قال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أكدت سماؤهم تأبّطت زِقّى واحتبستُ عنـــانى

وذكر لهم أبيات تلك المقطوعة الخمرية الرائعة . فأعجبوا بالشعر كثيراً وذهبوا فى مدحه كل مذهب ، معتقدين أنه — كما أوهمهم — شعر أبى نواس .

فلما أفرطوا ، قال لهم : خفضوا عليكم فإنه لى . فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته التى مطلعها :

---

(١) الفتيل : كالفتيت .
(٢) الخشف : ولد الظبى . والرشأ ، الظبى إذا قوى ومشى مع أمه .
(٣) النوك : الحمق .
(٤) انظر هذه القصيدة فى كتاب ليڤى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٠٨–١١٠ . وقد أورد ابن سعيد فى المغرب بعض أبياتها ج ٢ ص ٥٨ .

تداركتُ فى شُرب النبيذ خَطائى[١] وفارقت فيــه شيمــتى وحيــائى

وهى القصيدة التى منها الأبيات التى حسبوها لأبى نواس . فلما أتمها خجلوا وافترقوا عنه .

وقد أوردنا هذه النوادر جميعًا لنبرز ملامح شخصية الغزال . وقد تكون بعض هذه النوادر من نسج خيال القصاصين ، ولكنها مع ذلك تدل على ما عرف به الشاعر من صفات ، وما اشتهرت به شخصيته من معالم . وهكذا نفهم أن الرجل كان ذكيًّا لبقًا . خفيف الظل ، على كثير من السخرية التى تصل أحيانًا إلى عدم المبالاة .

وبقى الغزال بالمشرق مدة ، ثم حن إلى الأندلس ، فعاد إلى وطنه ، وقد أقلع عن الشراب ومال إلى الزهد وقول الشعر فيه .

وظل كذلك حتى مات سنة ٢٥٥ هـ تقريبًا ، فى عهد الأمير محمد ، بعد أن عُمِّر وقارب المائه [٢] .

وشعر الغزال يسير فى الاتجاه المحدث الذى نقله عباس بن ناصح إلى الأندلس . وقد عرفنا أن الغزال كان فى أيام نشأته الأدبية من المترددين على مجالس ابن ناصح ، التى كانت تعقد فى قرطبة ويتناشد فيها الشعراء ويتناقدون ، وعرفنا أيضًا أن الغزال كان فى تلك النشأة الأدبية بصيراً بالشعر حتى لقد انتقد بعض ما كان يقوله ابن ناصح فى مواجهته .

ويمكن تقسيم حياة الغزال الشعرية إلى ثلاث مراحل : الأولى . مرحلة الشباب

---

(١) الخطاء ، كالخطأ : ضد الصواب .

(٢) جاء فى بغية الملتمس وجذوة المقتبس أنه مات سنة ٢٥٠ عن ٩٤ سنة . ولكن الغزال نفسه قد صرح فى بعض شعره أنه عاش ٩٩ سنة ، فإذا أضفنا هذه السنوات إلى تاريخ ميلاده كانت وفاته سنة ٢٥٥ . انظر أبيات الغزال النونية التى أولها : « ألست ترى أن الزمان طوانى » .

والنزق . وتغلب على شعره فى تلك المرحلة موضوعات الخمر والغزل والمجون والفكاهة . وقد مرت نماذج عديدة من شعر هذه المرحلة المعالج لتلك الموضوعات .

والمرحلة الثانية ، مرحلة الكبَر والتعقل ، وتغلب على شعره فى تلك المرحلة موضوعات النقد الاجتماعى والأخلاقى ، الذى ينبىء عن عمق وعى وقوة إدراك لعيوب الناس ونقائص الحياة ، مما وصل بالشاعر إلى التشبع بروح السخرية وقوة الإحساس بالمرارة ، بل إلى التشاؤم الذى حال كثيراً بين عينى الرجل وما فى الناس والحياة من خير .

ولعل مما يمثل هذه المرحلة من حياة الغزال الشعرية ، قوله فى علاقات الناس القائمة — فى نظر الشاعر — على الختل والعداوة وانتهاز الفرص ونيل القوى من الضعيف :

لا ومَن أعملَ المطايا إليـــه كلُّ من ترتجى إليـــه نصيبًا
ما أرى ها هنا من الناس إلا ثعلبًا يطلب الدجاج وذيبـــا
أو شبيهًا بالقط ألقى بعينيـــــه إلى فأرة يريد الوثوبا[1]

وقوله فى المرأة وكونها — فى رأيه — كالسراج أو الخان أو الثمرة التى تدنو لأول آكل :

يا راجيًا ودَّ الغـــوانى ضَلةً فنؤاده كلفًا بهـــن مـــوكلُ
لا تكلفنَّ بوصلهن فإنمـــا الـــــكلف المحب لهن من لا يعقل
إن النساء لكالسروج حقيقةً فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فإذا نزلت فإن غـــيرك نازل ذاك المكان وفاعل ما تفعـــل
أو منزلِ المجتـــاز أصبح غاديًا عنـــه وينزل بعـــده مَن ينزل
أو كالثمار مبـــاحة أغصانُها تدنو لأول من يمرُّ فيأكل[2]

وقوله فى الذى يولَّى أمراً يحتاج إلى أمانة لأنه فى ظاهره أمين ، بينما هو ككل الناس — فى رأى الشاعر — معتدٍ خائن مفسد :

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٤٣ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : المطرب لابن دحية ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

يقول لىَ القاضى معاذٌ مشاوراً ... وولّى امرأ فيما يرى من ذوى الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعًا ... فقلتُ وماذا يصنع الدُّبُّ بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ماكان من فضل[1]

ثم قوله فى الناس، وانطباعهم جميعًا — فى رأيه — على الإثم ، وغرقهم فى الذنوب، لا فرق بين واحد وآخر ، إلاأن هذا مفضوح وذاك مستور :

إذا أُخبرتَ عن رجل برىء ... من الآفات ظاهره صحيحُ
فسلهم عنه : هل هو آدمى ؟ ... فإن قالوا نعم فالقول ريح
ولكنْ بعضنا أهل استتار ... وعند الله أجمعنا جريح
ومن إنعام خالقنا علينا ... بأنّ ذنوبنا ليست تفوح
فلو فاحت لأصبحنا هروبًا ... فُرادَى بالفلا ما نستريح
وضاق بكل منتحل صلاحًا ... لِنَتْن ذنوبه البلدُ الفسيح[2]

وهذه النقدات الاجتماعية والأخلاقية تعتبر من التجديد الموضوعى الذى طرق به الغزال موضوعات جديدة ، لم يتجه إليها الشعراء قبله إلا على سبيل اللمحات العابرة .

أما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة الضعف والزهد . وفى هذه المرحلة تغلب على شعر الغزال موضوعات الشكوى من تقدم السن ، والحديث عن البِلَى الذى أخذ يدب فى كل شىء منه حتى الاسم ، ثم ذكرِ الزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى ، والموت والقبر والنهاية المحتومة . ومن شعر هذه المرحلة قول الغزال :

ألستَ ترى أن الزمان طوانى ... وبدّل خَلْقى كلّه وبرانى
تحيّفنى عضواً فعضواً فلم يدع ... سوى اسمى صحيحًا وحده ولسانى

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : قضاة قرطبة ص ٨٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ٤٥٢ . والنتن : ضد الفوح .

ولو كانت الأسماء يدخلها البِلَى ... لقد بلى اسمى لامتداد زمانى
ومالىَ لا أبلى لتسعين حِجّة ... وسبع أتت من بعدها سنتان
إذا عنّ لى شخصٌ تخيل دونه ... شبيهُ ضباب أو شبيه دخان
فيا راغبًا فى العيش إن كنت عاقلا ... فلا وعظ إلا دون لحظ عيان[1]

وقوله :

أرى أهل اليسار إذا توفوا ... بنوا تلك المقابر بالصخورِ
أبوا إلا مباهاة وفخراً ... على الفقراء حتى فى القبور
رضيتُ بمن تأنق فى بناء ... فبالغ فيه تصريفَ الدهور
ألمَّا يبصروا ما خرَّبته ... الدُّهورُ من المدائن والقصور
لعمر أبيهمُ لو أبصروهم ... لما عُرف الغنى من الفقير
ولا عُرف العبيد من الموالى ... ولا عُرف الإناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف ... من البدّن المباشر للحرير
إذا أكلَ الثرى هذا وهذا ... فما فضلُ الغنىّ على الفقير[2]

هذا ، وبرغم سير شعر الغزال فى الاتجاه المحدث ، بما اشتهر به هذا الاتجاه من موضوعات ، وبما عرف له من أسلوب ؛ قد كانت لشعر هذا الشاعر الأندلسى خصائص فنية واضحة ، تميزه عن شعر غيره ممن ساروا فى هذا الاتجاه من مشارقة وأندلسيين . وأهم تلك الخصائص : الاتجاه إلى القص والحوار ، والميل إلى التحليل والتعليل ، والتشبع بروح السخرية والنقد ، وإبراد الفكرة المبتكرة والصورة الجديدة من حين إلى حين ، واتضاح النظرة الحكيمة واللمحة الفلسفية ؛ مما لايُعرف كثيراً فى شعر الأندلسيين .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٥٠ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد سبقت نماذج من شعر الغزال تؤكد اتجاهه إلى القص والحوار ، كأبياته فى وصف الرحلة البحرية وما كان فيها من هياج للبحر ، وكبعض قطعه التى صور بها ما كان بينه وبين الإمبراطورة البيزنطية . ولم تكن طبيعة تلك الموضوعات المشتملة على أحداث ، هى التى فرضت على الشاعر هذا الاتجاه القصصى ؛ وإنما كان اتجاه الشاعر وميله إلى طريقة القص حتى فى الموضوعات التى لاتفرض هذه الطريقة . ومن ذلك أبيات له يعالج فيها مشكلة زواج الفتاة من شيخ غنى أو شاب فقير ، وفيها يقول الغزال بأسلوبه القصصى :

وخيّرها أبوهـا بين شـيخ كثير المال أو حدث فقيرِ
فقالت خُطّتا خسف وما إن أرى من خطوة للمستخـير
ولكن إن عزمتُ فكل شىء أحبُّ إلىَّ من وجـه الكبير
لأن المرء بعـد الفقر يُثرى وهـذا لا يعـود إلى صغير[1]

بل إن الغزال يؤثر هذا الأسلوب القصصى حتى فى بعض الهجاء ، ومن ذلك قوله فيمن اسمه أبوحازم :

سألتُ فى النوم أبى آدمًا فقلت والقلب به وامـقُ
ابنك بالله أبو حـازم ؟ صلى عليك الملكُ والخـالق
فقال لى : إن كان منى ومِن نسلى ، فحوًّا أمكم طالق[2]

ومن لمحات الغزال الحكمية وصوره الجديدة — غير ماتضمنته النماذج السابقة — قوله :

قالت أحبـكَ قلتُ كاذبةٌ غُـرّى بذا من ليس ينتقـدُ

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ٣٥٢ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٢ .

هـــذا كلام لســـت أقبـــله الشيخ ليس يحبـــه أحـــدُ
ســـيان قولك ذا وقولك إنّ الريح نعقـــدها فتنعقـــدُ
أو أن تقـــولى النـــار باردة أو أن تقولى المـــاء يتقـــد[1]

فقوله : « الشيخ ليس يحبه أحد » لمحة حكمية فيها صدق التجربة وبساطة التعبير . وقوله : « الريح نعقدها فتنعقد » صورة فيها الابتكار والدقة وتحليق الخيال .

ومن هذه الصورة المبتكرة الدقيقة كذلك قوله :

ولو كانت الأسماء يدخلهـــا البِلَى لقـــد بلى اسمى لامتداد زمـــانى

فتسرب البلى إلى الاسم ، صورة فريدة لانعرف أحداً سبق بها هذا الشاعر الأندلسى المحلق .

وفى مثل هذه الصورة الجديدة والأفكار المبتكرة — بالإضافة إلى إيثار أسلوب القصص — يُرى بوضوح اتجاه الغزال كأكثر الشعراء الأندلسيين ، إلى التجويد الفنى .

ولسنا بعد فى حاجة إلى إيراد أمثلة جديدة على شيوع روح السخرية فى شعر الغزال ؛ فكل شعره مشبع بتلك الروح ، التى سيطرت على الرجل فى كل مراحل حياته تقريباً ، وإن أخذت مظاهر مختلفة تبعاً لمراحل عمر الرجل المديد ؛ إذ كانت فى أول مرحلة تأخذ مظهر الاستخفاف والتظرف ، وفى ثانى مرحلة تأخذ مظهر المرارة والنقد ، وفى ثالث مرحلة تأخذ مظهر الاشمئزاز والزهد .

وأخيراً قد خلّف الغزال شعراً كثيراً جمعه ديوانًا ورتبه فى الفترة التالية ، شاعرٌ يسمى حبيب بن أحمد الشطجيرى [2] . ولكن هذا الديوان قد ضاع فيما ضاع

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٤٤٣ .
(٢) انظر : جذوة المقتبس ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٣٥٢ .

من تراث الأندلس ، ولم يبق من شعر هذا الشاعر الأندلسى الكبير إلا بعض قصائد ومقطوعات متناثرة فى الكتب التى ترجمت له ، أو عرضت لذكره ، أولشيء من شعره بمناسبة تاريخية أو أدبية [١] .

والذى يدل عليه هذا الباقى من شعر الغزال ، أنه كان من ألمع شعراء فترة صراع الإمارة ، بل كان من أكبر شعراء الأندلس فى كل الفترات ؛ وذلك لأصالته الشعرية ، وخصائصه الفنية ، وسبقه إلى موضوعات النقد الاجتماعى والأخلاق ، واتضاح بعض النظرات الحكمية واللمحات الفلسفية عنده ، وتصوير شعره لعصره وحياته إلى حد كبير .

سعيد بن جودى [٢] :

هو سعيد بن سليمان بن جودى السعدى . يتصل نسبه بأسرة تعرف بالرياسة وتنحدر من قبيلة هوازن . ولسنا نعرف شيئًا عن مولده ونشأته الأولى ، ولكنا نعرف أنه شب على الفروسية والميل إلى الأدب . وكان من زعماء العروبة فى غرناطة ، أثناء الحركة العنصرية التى كانت بين العرب والمولدين فى عهد الأمير عبد الله . وقد كان سعيد أولا من أعوان الزعيم سوّار ، الذى كان على رأس العرب فى غرناطة . وخاض ابن جودى بعض المعارك ضد ابن حفصون حتى وقع مرة فى الأسر وسجن حينًا . ولكنه تمكن من الخلاص ، وواصل الكفاح ضد مناوئيهم . فلما قُتل سوار ، اختار العرب سعيداً زعيمًا لهم ، وخاطبوا الأمير عبد الله يسألونه الموافقة على رياسة سعيد لهم فوافق . وكان سعيد شجاعًا متحمسًا ، فأعلى كلمة الغرناطيين من ذوى الأصول العربية ، وناصرهم على أعدائهم المولدين ، وحارب ابن حفصون وأحرز عليه انتصارات ، حتى هابه هذا

---

(١) انظر المراجع الواردة فى هامش أول الحديث عن الغزال . وانظر العقد الفريد لابن عبد ربه والبيان المغرب لابن عذارى .

(٢) انظر ترجمته وبعض شعره وأخباره فى : المقتبس لابن حيان ، الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا ، ص ٢٩ وما بعدها .

المتمرد الذى لم يهب حكومة قرطبة ، وحتى أصبح سيف العروبة والإسلام المسلول على الأعداء والمناوئين فى هذه المنطقة من جنوب الأندلس .

وقد افتتن أعوان سعيد بزعيمهم ، حتى عدوا له خصالا ، قالوا إنها لم تجتمع لسواه ؛ وتلك الخصال هى : الجود والشجاعة والفروسية والشعر والخطابة والشدة والطعن والرماية . غير أنهم كانوا يأخذون عليه ولعه بالنساء . ولعل ذلك مما يكمل صورته كفارس .

وقد خلف سعيد بن جودى شعراً يصوره محارباً قوياً شديد البأس فى الحرب ، ويمثله محباً لين العريكة فى الحب . أى أن شعره يصوره كفارس بالمعنى التقليدى للفارس .

فمما يصور قوته وشدة بأسه ، قوله :

الدرع قد صارت شعارى فما أبسُط حاشاها لتهجاعى
والسيف إن قصَّره صانع طوّلَه يومَ الوغى باعى
وما كُمَيتى لى بمستقصر إذا دعانى للقا داعى
هذا الذى أسعى له جاهداً كل امرئٍ فى شأنه ساعى[1]

ومن ذلك الضرب أيضاً ، قوله وهو فى أسر ابن حفصون :

خليلىَّ صبراً راحة الحرّ فى الصبر ولا شىء مثل الصبر فى الكربِ للحر
فلا تيأسا من فرحة بعد ترحة وأن تنعما باليسر من بعد ما عسر
فكم من أسير كان فى القيد موثقاً فأطلقه الرحمٰن من حلَق الأسر
لئن كنتُ مأخوذاً أسيراً وكنتما فليس على حرب ولكن على غدر
ولوكنت أخشى بعض ما قد أصابنى حمتْنى أطراف الرديني السمر

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٢٤ .

فقد علم الفرسانُ أنى كميُّهـا ... وفارسها المقدام فى ساعة الذعر
فيـا ظاعنًا أبلغ سلامى تحيةً ... إلى والدىَّ الهائمين لدى ذكرى
وأدِّ إلى عُرسى السلام وقل لها ... عليك تحياتى إلى موقف الحشر
بهمك ألّى خالنى يوم موقى ... وكربكِ أمضى لى من القتل والأسر
وإن لم يكن قبرٌ فأحسنُ موطنًا ... من القبر للفتيان حوصلة النسر[1]

أما شعره الذى يصور ضعفه فى حبه ولين عريكته فى معارك الغرام ، فمنه قوله فى مطربة اسمها جيحان ، كان قد سمعها فهام بها دون أن يراها :

سمعى أبَى أن يكون الروحُ فى بدنى ... فاعتاض قلبىَ منـه لوعةَ الحزَن
أعطيتُ جَيْحان روحى عن تذكُّرها ... هذا ، ولم أرَها يومًا ولم تَرَنى
فقل لجيحانَ : يا روحى ويا أملى ... استوصِ خيراً بروح زال عن بَدنى
كأننى واسمها والدمع منكسبٌ ... من مقلتى ، راهبٌ صلى إلى وثن[2]

ومن ذلك أيضًا قوله فى جارية أعرضت عنه ورمت بطرفها إلى الأرض خجلا :

أماثلةَ الألحاظ عنَّا إلى الأرضِ ... أهذا الذى تبدين ويحك من بغضى ؟
فإن كان بغضًا لستُ والله أهله ... و وجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض[3]

ومما يصور شخصيته بجانبيها قوله :

لا شىءَ أملح من ساق على عَنَقٍ ... ومن تناقُل كاسات على طبق
ومن مُواصلة من بَعدِ معتبة ... ومن مُراسلة الأحباب بالحدَق
جَرَيتُ جَرْىَ جَموح فى الصِّبا طلقا ... وما خرجتُ لصَرْفِ الدهر فى مَلَق

---

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٢٩ .
(٢) انظر هذه الأبيات فى المصدر السابق ١٢٤ .
(٣) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس ص ١٢٥ .

ولا انثنيتُ لداعى الموت يوم وغَى كما انثنيتُ وحَبلُ الحب فى عُنُقى[١]

وقد انتهت حياة سعيد بن جودى نهاية محزنة ؛ حيث قتله بعض حاسديه غدراً سنة ٢٨٤هـ . ولكيلا يؤخذوا بجريمة قتله، ادعوا أنه تحدى أمير قرطبة عبد الله بن محمد ، وادعوا أنه قال فيه هذه الأبيات :

قلْ لعبد الله يجدُد فى الهربْ نَجَم الثائرُ من وادى القصب
يا بنى مَروانَ خلّوا ملكَنا إنما الملك لأبناء العرَب
قرّبوا الوَرْد[٢] المحلى بالذهب واسرجوه إنَّ نجمى قد غلب[٣]

هذا وشعر ابن جودى يسير فى الاتجاه المحافظ ؛ فهو فى موضوعاته يكاد ينحصر فى الفخر والحماسة والغزل ، وهو فى أسلوبه يميل إلى الأساوب التقليدى فى الشكل والمضمون جميعاً . وميل هذا الشاعر إلى ذلك الاتجاه له ما يفسره من نشأته وطبيعته وسائر ظروفه ؛ فالرجل — كما عرفنا — قد نشأ على التعصب للعروبة . وعاش زعيماً من زعمائها ، وفارساً من فرسانها ، وكان فى أيامها من أبرز المنافحين عن أمجادها ؛ وكل هذا كان يربطه بالمحافظة على القديم ، ويشده إلى ماضى العرب فى كل شىء ، ومن هنا جاء ميله إلى الاتجاه الشعرى المحافظ .

ومع تلك المحافظة فى شعر سعيد بن جودى تتضح لفنه سماته ، وتظهر فى شعره شخصيته . فهو يميل إلى الغنائية المرهفة ؛ فيؤثر المقطوعات ، ويختار الألفاظ ، ويصقل التراكيب . ويملأ حنايا شعره بالعاطفة ، حتى لنرى كل مابين أيدينا من شعره يصلح للتلحين والغناء ، ويكاد يترنم به قارئه ويغنيه منشده .

---

(١) انظر هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) الورد من الخيل ، ما بين الكميت والأشقر .

(٣) انظر هذه الأبيات فى المقتبس ص ٣٠ .

ثانياً : النثر :

يمكن القول بأن النثر فى فترة صراع الإمارة قد نال تقدماً وأصاب تطوراً . أما تقدمه فيتضح فى تلك الكثرة من الأدباء الناثرين الذين ازدحمت بهم تلك الفترة ، والذين حفظت أسماء كثير منهم كتب التاريخ والتراجم ، حتى لقد عُد لكل أمير من أمراء تلك الفترة عدد من الكتاب أقله اثنان[١] . فكان من كتاب الأمير عبد الرحمن الأوسط : عبد الكريم بن عبد الواحد ، وسفيان بن عبد ربه ، وعيسى بن شهيد . وكان من كتاب الأمير عبد الله بن محمد : عبد الله بن محمد الزجالى ، وعبد الله بن محمد بن أبى عبده وموسى بن زياد [٢] .

بل إن الاشتغال بالكتابة لم يعد وقفاً على هؤلاء المسلمين ذوى الأبوة العربية ، ولكنه تعداهم إلى بعض المسيحيين ذوى الأصول الإسبانية ، مثل « قومس بن أنتنيا » الذى عمل حينا فى الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، واضطر أخيراً إلى الإسلام حتى ينسجم وضعه ككاتب للأمير الأندلسى المسلم [٣] .

أما تطور النثر فى تلك الفترة ، فأهم مظاهره تأثره أولا بأسلوب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشرقى ، الذى لمع فى أواخر العصر الأموى والذى كان أول من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات . ثم تأثره ثانياً بأسلوب الجاحظ الذى تألق فى العصر العباسى وكان صاحب مدرسة أسلوبية متميزة ، كان من أهم سماتها : الميل إلى الجمل القصار ، وإجادة استخدام حروف الجر متتابعة متغايرة فى دقة وحسن استعمال ، ثم أداء المعنى

---

(١) راجع : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢١ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٢ ، ٨٣ .

الواحد بعدة جمل ، تبدو فى الظاهر تكراراً ، ولكنها فى الواقع تجسيم للمعنى وتفنن فى إبرازه [١] .

وليس هذا التطور فى النثر الأندلسى خلال فترة صراع الإمارة بصعب التفسير ؛ بعد أن عرفنا ما كان لتلك الفترة من وثبة ثقافية ، من شأنها أن تشب بالأدب ، وبعد أن عرفنا ما كان فى تلك الفترة أيضاً من نقل الكثير من آثار الأدباء المشارقة إلى الأندلس ، على يد أبى اليسر الرياضى وغيره [٢] .

وقد كان الجاحظ بخاصة ذا شهرة لدى الأندلسيين فى تلك الفترة ، وقد وصلت بعض كتبه إليهم فى حياته ، ككتاب التربيع والتدوير ، وكتاب البيان والتبيين . كما كان يقصده بعض الأندلسيين للتلمذة عليه ؛ حتى لقد امتدت تلمذة بعضهم عليه عشرين سنة [٣] .

وبعد فهذه نماذج من نثر فترة صراع الإمارة ، نوردها لنتبين عليها ماتقدم من أحكام . فمن الخطب خطبة ألفاها الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بعد أن تم دفن والده الحكم الربضى ، وبعد أن خلفه الأوسط فى الإمارة . وفى تلك الخطبة لاتخفى تأثيرات عبد الحميد ؛ فهى ذات مقدمة مسهبة وتحميد مطنب . قال عبد الرحمن : « الحمد لله الذى جعل الموت حتما من قضائه ، وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور على مشيئته ؛ فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فما [لهم نجاة من] الفناء [٤] تبارك اسمه ، وتعالى جده . وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليماً . وكان مصابنا

---

(١) اقرأ الرسالتين الواردتين فى آخر هذا الحديث وأولاهما قد وجهها الأمير محمد إلى عبد الملك بن أمية ، وثانيتهما قد كتبها وليد بن عبد الرحمن بن غانم إلى الأمير المذكور .

(٢) انظر الفقرة الخاصة بوثبة الثقافة فى أول هذا الفصل .

(٣) انظر : معجم الأدباء جـ ١٦ ص ١٠٤ .

(٤) فى الأصل : فما الفناء . وقد أضفت ما يتضح به المعنى ، ويتفق مع السياق .

بالإمام رحمه الله ، مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب فى كمال الأجر والذخر. و [قد] عهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله»[١].

ومن الرسائل رسالة بعث بها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، إلى عبد الملك ابن أمية ، وكان قد اختاره الأمير كاتبًا له . وفى تلك الرسالة يظهر تأثير الجاحظ ؛ ففيها تفنن فى استخدام حروف الجر ، وإيرادها فى تقابل بارع . وفيها كذلك تلك الجمل القصار المتتابعة فى غير تكرار أو إملال . يقول الأمير محمد فى رسالته : «قد فهمنا عنك ، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك ، لكن اصطناعا لك ، وعائدة عليك . وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب ، فتخير منهم من تثق به وتعتمد عليه . ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبنا والإصلاح عليك ، إلى أن تركب الطريقة ، وتبصر الخدمة ، إن شاء الله تعالى »[٢] .

ومن الرسائل كذلك ، رسالة لوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، بعث بها إلى الأمير محمد يطلب منه — فى صورة مستورة — أن يقربه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة . وفى تلك الرسالة يقول وليد : « عظمت نعمة الأمير — أبقاه الله — عن الشكر ، وجلت أياديه عن النشر ، فمتى رمتُ شكر أدنى ما غمرنى ، وحمد أيسر ماشتمل علىّ ، تكاءدنى[٣] الشكر ، وعجز بى الجهد .ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ فى القول ، والاجتهاد فى العمل ، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة أزلفت ، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت . وأنا بهما مخيم ، وعليهما معول . والله الناقل لعباده ، بطاعتهم له ،

---

(١) اقرأ هذه الخطبة فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) انظر هذه الرسالة فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٣) تكاءدنى : شق على .

وشكرهم أياديه ، من دار الشقوة إلى دار السعادة ، ومن نَصَب العاجلة إلى راحة الآجلة »[١]

ومن التوقيعات ، وما رد به الأمير على الرسالة السابقة ، حيث كتب : « إن الله شاكر يحب الشاكرين . وقد ناديت فأسمعت . ولكل أجل كتاب »[٢] .

ومن المحاورات ، ماكان بين الأمير عبد الله ومولى من مواليه ، حيث اعتذر المولى عن خطأ كان منه ، فقال له الأمير : « إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبيء عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بلك ، وأسدل لستر العفو عليك » . فقال المولى : « قد اشتمل الذنب علىّ ، وحاق الخطاء بىّ ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لى عذر » . فقال الأمير : « مهلا عليك ريداً بلك . تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل . وقد وسعك الغفران »[٣] .

وليس يخفى ما فى هذه النماذج جميعًا من السمات المحدثة ، التى لم تكن تبدو فى نماذج الفترتين السابقتين ؛ فهنا نرى مراعاة لقيم جمالية ، وقصداً إلى محسنات أسلوبية ؛ تبدو حينًا فى التقابل بين الكلمات والجمل ، وحينًا فى الازدواج بين الألفاظ والتراكيب ، كما تبدو أحيانًا فى هذا السجع المقبول غير المتكلف ، والتعبير المصقول غير المرتجل . هذا بالإضافة إلى كثرة التحميدات والجمل الدعائية والعناية بالمقدمات ، وما إلى ذلك مما أدخله على النثر العربى أدباء متأثرون بآداب غير عربية

وهكذا لم يعد النثر الأندلسى فى تلك الفترة كما كان قبل ذلك نثراً بسيطًا ذا سمات عربية خالصة ، وإنما أصبح نثراً فنيًّا تتضح فيه تلك المؤثرات التى أصابت مصدره الأصلى فى المشرق ، حين اتصل النثر هناك بتقاليد فنية أجنبية ، أهمها التقاليد الفارسية .

على أن النثر الأندلسى برغم تقدمه وتطوره فى تلك الفترة ، قد ظل مقصوراً على هذا النوع الخالص ، ولم يتعد ذلك إلى النوع التأليفى الذى سيظهر فى الفترة التالية .

---

(١) اقرأ هذه الرسالة فى : أخبار مجموعة ص ١٤٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) اقرأ هذه المحاورة وسببها فى : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٢٣٠ .